

## الفصل السادس

### مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بالمتنزهات

تمهيد:

كانت المتنزهات هي المكان المحبب لكل الناس للترويح عن أنفسهم وقضاء أعيادهم ومواسمهم إلا أنها ارتبطت بشكل خاص ببعض الأعياد والمواسم الهامة مثل موسم دوران المحمل وأعياد وفاء النيل .

وكانت مظاهر تنزه المصريين حافلة فقد عمد الناس أن يقضوا بعض أوقاتهم بالمتنزهات على أحسن ما يكون فتحرروا من كل القيود، وقضوا أوقاتهم في لعب ومرح وسعادة على أن الحال لم يكن دائماً على هذا النحو من التحرر وإنما تعرض المتنزهات في بعض الأوقات خصوصاً أيام الأزمات والأوبئة والمحن لرد فعل مضاد فكان الوالى ومن معه يكسبون المتنزهات ويهجمون على من فيها .

ومن خلال حصرنا السابق للعمائر على البرك وجدنا أنها تنتمي لطبقة متميزة في المجتمع فمعظمها عمائر سلاطين وولاة وامراء وقضاة، ولكن المتنزهات كانت مرتعاً للخاصة والعامه حتى أن البعض فتح قصوره وحدائقه للعامه، واتخذ الأمراء القاطنين بالمتنزهات مثل البرك دعوة العامة للحضور إلى قصورهم هناك كنوع من الدعاية لهم حيث أنهم أرادوا أن يحيطوا شخصياتهم في ثوب فضفاض براق يظهرهم أمام العامة في وضع هام ومتميز، كما أنهم كانوا يتحينون الفرص لدعوة السلطان وكبراء البلد والضيوف لينالوا شرفاً عظيماً، فأقاموا المهرجانات الكبيرة بكل ما فيها من مظاهر بذخ وجو يملؤه الفرح والسرور ليرضوا غرور المدعوين .

وقد عُرف عن المصريين روح المرح والدعابة في كل زمان ومكان بالرغم من خضوعهم لأرستقراطية حاكمه في العصرين المملوكي والعثماني تفتنت في استغلال البلاد وأهلها<sup>(١)</sup>، وقد ذكر «ابن بطوطة» الذي زار مصر أثناء سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون أن أهل مصر "ذو طرب و سرور و لهو"<sup>(٢)</sup>، وذكر "بيلوتى الكرىتى" أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) الرحلة، ص ٣٨ .

الناس دائماً مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان. (١)

ونلاحظ أن روح المرح لم تقتصر على فئة دون أخرى من فئات المجتمع المصرى، بل شملت جميع الفئات من طبقات المجتمع حتى المحافظين من الفقهاء وأهل العلم (٢)، ويضرب لنا "ابن بطوطة" مثلاً يقوام الدين الكرمانى وهو من كبار علماء مصر أنه اعتاد أن يذهب إلى مواضع الفرج والتزهات منفرداً عن أصحابه بعد صلاة العصر (٣).

ومثال لتعلق الناس بالترويح عن النفس حتى فى أحلك الظروف ما ذكره "ابن تغرى بردى" أن فى سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م كانت الدولة تستعد للقيام بحملة ضد "سوار" حاكم إحدى الدويلات التركمانية المجاورة لحدود السلطنة المملوكية بالشام " . . . إلا أن جماعة ممن ليس لهم مروّة ولا عرض تنتزه وتدور فى المفترجات وأكثرهم من العوام والأطراف" (٤)

ومثال آخر يبين تعلق الناس بالمتنزهات وانهازهم الفرص للهو والمرح حتى فى ظل أحلك الظروف ما ذكره "الجبرتى" أنه فى أيام عثمان باشا الحلبي أشيع فى الناس فى يوم الاربعاء رابع عشرة ذى الحجة آخر سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م أن يوم القيامة قائمة يوم الجمعة وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً ويقول الإنسان لرقيقه بقى من عمرنا يومان وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات ويقول بعضهم لبعض دعونا نعمل حظاً ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة (٥)

وقد عاجلت فى هذا الفصل أربع نقاط هى مظاهر التنزه والاحتفال فى الأيام العادية والأعياد والمواسم التى ارتبطت بالمتنزهات، وارتباط المتنزهات ببعض الأمراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها، والمتنزهات والأدب .

## أولاً: مظاهر التنزه والاحتفال فى الايام العادية

التنزه بالنيل وجزره والخطط عليه :

كان الخروج للنيل للتنزه على صفحات مياهه وعلى جزره والخطط التى على شواطئه مثل منشأة المهرانى وغيرها يأتى فى مقدمة الأماكن للفرجة، الترويح عن النفس خارج منازلهم

(١) Dopp, L'Egypte, p. 9.

(٢) ابن حجر، انباء الغمر، ج١، ص ٥٩٣-٥٩٤.

(٣) الرحلة، ٣٨.

(٤) حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٨٤.

(٥) عجائب الآثار، ج١، ص ٢١٩.

وأماكن عملهم خلال العصرين المملوكى والعثمانى .

وكانت مظاهر تلك النزعات تكون على أبدع ما يكون فى حالة وفاء النيل ، كثيراً ما تعرضت تلك المتنزعات للخراب والهجر فى حالة عدم وفاء النيل .

وكان خاصة وعامة أهل القاهرة ينغمسون فى اللهو والقصف والفرجة وما يصاحب ذلك من مجالس وغناء وعزف وموسيقى وأطعمة وأشربة عديدة<sup>(١)</sup> ، وكانت أجمل أيام الخروج هى أيام خروج السلطان وكبار الأمراء حيث تقام مهرجانات أشبه بالأعياد ، وقد حرص معظم السلاطين المماليك على الخروج أحياناً للنيل ، وكذلك بعض ولاة مصر فى العصر العثمانى .

ومثال للسلاطين المغربين بالتنزه على ساحل النيل وخطه مثل منسبة المهرانى السلطان الملك المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون (٧٤١-٧٤٢هـ) حيث ينزل هو والأمراء خفية إلى هناك حيث يقيمون أمسيات مع المغانى ويتزلون فى الشخاتير<sup>(٢)</sup> ويتفرجون ويطلعون سراً إلى القلعة<sup>(٣)</sup> .

وكان الناس يتحينون أى فرصة للتفرج والاحتفال على النيل مثلما تجمعوا بببلاق وامبابة لاستقبال الأمير شيخو بعد عودته من سجنه بالاسكندرية يوم ٤ رجب سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م ، وقد خرج الناس للفرجة حتى بلغت المراكب التى أحاطت بالحراقة التى يركبها شيخو نحو الألف مركب ، فسار شيخو فى موكب عظيم إلى الغاية لم ير مثله لأمير إلى أن صعد القلعة .<sup>(٤)</sup>

ومن السلاطين الذين اعتادوا الذهاب للنيل والاحتفال هناك والمبيت أحياناً بقصور امبابة والجيزة السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح<sup>(٥)</sup> (٧٥٢-٧٥٥هـ / ١٣٥١-١٣٥٤م) والملك المنصور حاجى<sup>(٦)</sup> (٧٦٢-٧٦٤هـ / ١٣٦١-١٣٦٣م) والملك الظاهر برفوق<sup>(٧)</sup> .

وإذا تتبعنا سيرة السلطان الملك المؤيد شيخ نجدها تعطينا مثلاً جلياً لما كان يحدث فى العصر المملوكى من مظاهر التنزه إذ أنه كان أكثر السلاطين خروجاً وأنه قد أقام فى نزعاته أكثر مما أقام فى القلعة إذ أنه قد يبقى فى تنزهه خارج القلعة أحياناً شهراً متواصلاً<sup>(٨)</sup> وبالرغم من الآلام

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج١ ، ص ٢٤٦ . (٢) انظر تعريف الشخاتير فيما سبق ، ص ١٣٦ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٣٥ ، ١٤٢ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٦٢ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٨٤٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٢٩ .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ١ ، ص ٥٨٧ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٨٨٧ .

(٨) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٥٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٨٧ .

التي عانى منها بسبب مرض رجليه إلا انه كان يداوم على الخروج محمولاً فى محفة أو على الاعناق<sup>(١)</sup>.

وكان يقضى اغلب أوقاته بالنيل وجزره والخطط عليه، وأحياناً يأخذ حريمه وأولاده معه وحاشيته وكبار الأمراء<sup>(٢)</sup>، وأصبحت المراسم تتم هناك على النيل، فتدق طبلخانات السلطان وكبار الأمراء هناك وتعمل الخدمة على ما جرت به العادة فى القلعة ويذكر المقرئى " ولم نعهد بمصر نظير هذا"<sup>(٣)</sup>.

وكان المؤيد ينتقل طوال فترة خروجه على النيل ما بين بيت البارزى ببولاق<sup>(٤)</sup>، إلى قصره بحرى امبابة، إلى الجزيرة الوسطى، إلى الميدان السلطانى ومنشية المهرانى أمامها، إلى بيت الخواجى ابن الخرنوبى بالجيزة المواجه للمقياس، إلى جزيرة الروضة إلى رباط الآثار النبوية، وأحياناً كان يبيت بالحراقة الذهبية<sup>(٥)</sup>.

وينتقل المؤيد بين تلك الأماكن بالذهبية التي يكسر بها سد الخليج وحوله حراريق الأمراء المزينة أحسن زينة، ويجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم للتفرج حيث يتلأ البران بهم ما بين بولاق وامبابة شمالاً إلى مصر القديمة والجزيرة جنوباً، " فلا ينكر على احد منهم"<sup>(٦)</sup>.

وكانت تلك المهرجانات التي تقام على درجة كبيرة من الإبهار، فقد كان المؤيد يلزم الأمراء بإحضار الزيت والنفط ويلزم العامة بإشعال مسارج الفخار بالزيت والنفط وعمل مسارج أيضاً

---

(١) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٤٩٩، ٥٣٤، ٥٤٢.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٥، المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٥٢٩.

(٣) السلوك، ج٤، و ص ٤٩٩، وابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٨٥.

(٤) بيت ابن البارزى كان فى الأصل لتناصر الدين بن سلام فاستأجره منه ابن البارزى وأضاف إليه عدة بيوت مجاورة له واتقن بناءها ووضعها وضماً غربياً على قاعدة عمائر بلده حماه وقد أعجب السلطان الملك المؤيد شيخ بها إعجاباً شديداً فقضى بها أغلب أوقاته. انظر: ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ١٩٦.

\* وابن البارزى هو تاجر الدين محمد بن محمد بن الفخر عثمان بن الكمال محمد بن عبدالرحيم بن عبيد الله بن المسلم البارزى (٧٦٩-٨٤٣هـ) برع فى الأدب وولى كتابة السر بالديار المصرية.

السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص ٢٧٤.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٩، المقرئى، السلوك. ج٤، ص ٥٠١، ٥٢٩، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٤٨، العينى، عقد الجمان، (بدون ناشر) ص ٣٥٦، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ١٩٦-١٩٧.

(٦) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٥٠١.

\* ويعبر «المقرئى» عن نفسه كمحتسب ويستنكر تلك التصرفات التي حدثت أيام المؤيد بقوله ان الناس «مر لهم جميعاً من السخف ما لم نعهد بمثله لملك قط». السلوك، ج٤، ص ٤٣٥.

من قشر البيض وقشر النارج وقد انغمست فيها فتايل القطن بالزيت وتشعل بالنيران ثم ترسل بعد غروب الشمس بنحو ساعة، وتطلق النفوط وتشمل وقدات نفط هائلة ببرى امبابية ويولاق، ويزدحم النيل بمراكب المتفرجين الذين يخرجون فى التمهتك عن الحد ولا سيما أن تلك المهرجانات كانت بأمر سلطانى. (١)

وكان المؤيد حريصاً على الاحتفالات بطريقة مبالغ فيها فكان يأمر المماليك للعب بالرمح على شاطئ النيل<sup>(٢)</sup>، كما أنه جعل موكب المحمل يدور بيولاق ولم يقع مثل ذلك فى سالف الأعصار<sup>(٣)</sup>، وكان المؤيد يمارس رياضة السباحة فى النيل لمسافات كبيرة حتى فى ظل ظروف مرضه مما أدهش الناس<sup>(٤)</sup>.

وقد حظيت بولاق بمكانة مرموقة ايامه، وقال "المقريزى: الذى عاصر تلك الأيام" . . . فمرت للناس بيولاق فى تلك الايام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها<sup>(٥)</sup>، وأغلب إقامة المؤيد كانت ببيت كاتب السر ابن البارزى الذى بات به أغلب الاحيان، وكانت الأمراء تنزل فى عدة من دور الناس حول بيت ابن البارزى<sup>(٦)</sup>، وكان ابن البارزى يبالغ فى الاحتفالات حتى أنه كان يفرش شقق الحرير تحت حوافر الخيل السلطانى<sup>(٧)</sup>.

وقد ظلت مكانة بولاق مرموقة طوال العصرين المملوكى والعثمانى، وكانت تعج بالقصور والمناظر والبيوت والمساكن الممتدة على شاطئ النيل، وكان السلاطين والأمراء والولاة ينزلون بتلك القصور الفخمة مثل قصر (بيت) ابن البارزى والقصر الباسطى<sup>(٨)</sup> والقصر المعروف بالبرابخية<sup>(٩)</sup> وقصر الحجازية<sup>(١٠)</sup> وقصر الانصارى<sup>(١١)</sup> وغيرها كثير، بالإضافة لجوامعها ومدارسها الحسنة وحماتها وأسواقها ووكتلها الشهيرة.

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٠١ والعينى، عقد الجمان، بدون ناشر، ص ٣٧٣.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٣٧. (٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٨٧.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٣٤. (٥) السلوك، ج٤، ص ٥٠٢.

(٦) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٤٩٩. (٧) العينى، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٣٢٣.

(٨) القصر الباسطى نسبة إلى القاضى زين الدين عبدالباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى ناظر الجيوش ومتبشء الجامع الباسطى بخط الكافورى بالخرنفس سنة ٨٢٢هـ. المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٣٣١.

(٩) القصر المعروف بالبرابخية لن أقت على الشخصية التى نسبت إليه هذا القصر، وكان القصر يقابل القصر المعروف بالحجازية. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٩٥.

(١٠) القصر المعروف بالحجازية نسبة إلى مالكة خوند تر الحجازية بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوج الأمير بكتمر الحجازى وبه عرف. المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٧١، ٣٨٢.

(١١) قصر الأنصارى هو قصر المقر الأشرف القضائى شرف الدين الأنصارى نسبة إلى زكريا بن محمد الأنصارى (٨٢٣-٩٢٦هـ)، وكان قاضياً ومفسراً ومن حفاظ الحديث تولى منصب قاضى القضاة أيام

السلطان قايتباى، الرزكلى، الاعلام، ج٣، ص ٨٠.

وقد أرجع المؤرخ: ابن اياس: تعرض بولاق للخراب أحياناً إلى: كثر الفساد والفساد ببولاق جداً حتى خرج الناس في ذلك عن الحد" ، وذلك عندما كتب عن الحريق الذى وقع بها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦٢هـ والذى أتى على ثلاثمائة منشأة ما بين دور وربوع ودكاكين ، وكان يوماً مهولاً. (١)

إلا أن التعمير سرعان ما يعود إلى بولاق بعد المحن التى ألمت بها فتعود أبهى مما كانت وتظل دائماً قبلة المتزهين .

وكان السلطان اينال يخرج لبولاق هو وزوجته وحاشيته ، ونزلت زوجته مرة فى القطينة ببولاق بمناسبة شفائها فى العشر الأخير من ربيع آخر ٨٥٩هـ وتزايد تردد الناس إلى بابها ولا سيما لما عملت لها مرامى النفط والصواريخ ، وغير ذلك فى ليلة الاربعاء ثامن عشرينه وتسامع الناس بذلك فقصدوا التفرج من الأماكن البعيدة حتى ضاقت شوارع بولاق وسواحلها مع سعتها عنهم ، وازدحم الناس فى الطرقات وصارت كأيام دوران المحمل أو بعض ليالى وفاء النيل بل أعظم حتى جاء جماعة من أعيان الأمراء وأرباب الدولة ، وأما النسوة فكن اضعاف الرجال ودام ذلك من أول النهار إلى بعد العشاء الآخرة ووقعت فى تلك الليلة من القبائح والمفاسد والأمر الشنيعة مالا مزيد عليه . (٢)

وقد أورد لنا " ابن اياس " حادثة تبين لنا ما كان يحدث فى بولاق ، ففى رجب سنة ٨٦٥هـ فى أول سلطنة المؤيد احمد بن اينال " هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق وكان فى الظلمة فى نصف الليل فنهبوا من الناس شيئاً كثيراً وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى التهتك والقصف بسبب الفرجة ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر وصاروا يقيمون فى الرمل ليلاً ونهاراً من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ومضى ولم تنطح فى ذلك شاتان " . (٣)

وكان السلطان قايتباى يذهب كثيراً إلى بولاق حيث يستضيفه هناك القاضى شرف الدين الأنصارى ، ويركب الغراب الذى عمره الأنصارى ويتوجه به إلى شبرا<sup>(٤)</sup> ، وكذلك كان السلطان الناصر محمد بن قايتباى مغرمًا بقضاء بعض وقته فى بولاق ويحرق إحراقاً نطف حافلة وكان يبات هناك أحياناً<sup>(٥)</sup> .

(١) بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٢، ص ٢٢٨ . ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤ .

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٤) نفس المصدر، ج٣، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر، ج٣، ص ٣٨٩ .

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ينزل فى مواكب حافلة إلى بولاق حيث يضيفه القاضى كاتب السر محمود بن أجا بالبرابخية التى هناك حتى أنه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فى إحدى المرات فوق الألف دينار، وكان ابن السلطان معه وجماعة من الخاصكية، وانشرح السلطان هناك إلى الغاية، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات<sup>(١)</sup>.

وفى حوادث سنة ٩١٢هـ طلعت جزيرة بولاق تجاه ربع قائم التاجر ذكرنا من قبل أنها غالباً اندمجت ببر بولاق فيما بعد، وقال عنها "ابن اياس" . . . فصارت هذه الجزيرة فى كل سنة تزرع امقته ورياحين فتوجهت إليها الناس وخرجوا فى القصف والفرجة هناك عن الحد وضربوا الخيام واعمل هناك اخصاص للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هناك ليلاً ونهاراً وصاروا الناس يخرجون فى البحر إلى نصف الليل وقد قال فى هذا المعنى:

فى جزيرة بولاق رأينا عجب      ٠٠      أسد صاروا معهم ظبا شاردين  
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح      ٠٠      أذهلونا خضنا مع الخايضين<sup>(٢)</sup>

وكانت تتم ببولاق احتفالات بعدة موالد مثل مولد الامبابى ومولد الشيخ سويدان المجدوب فى مدرسة ابن الزمن برصيف بولاق وكان له مولد حافل<sup>(٣)</sup>.

وفى العصر العثمانى فضل السلطان سليم شاه أن يقيم اثناء وجوده بمصر على شاطئ النيل فأقام ببولاق فترة وفى الجزيرة الوسطى وفى الروضة<sup>(٤)</sup>.

وكان مملك الامراء خاير بك يركب فى الذهبية ويتجول على النيل متنقلاً ما بين الروضة والقصر العينى وبركة الحبش والبريم<sup>(٥)</sup>، ويقوم له القاضى بركات بن موسى المحتسب الموائد العظيمة من خرفان شوى وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من مطابق ضمنها مأمونية وسنبوسك وسكر وغير ذلك أشياء فاخرة<sup>(٦)</sup>.

وقد ذكر "البكرى" أن بولاق أصبحت فى زمنه فى غاية العمارة وأنها من المتزهات الهامة فى العصر العثمانى<sup>(٧)</sup>.

(١) نفس المصدر، ج٤، ص ٤٧٣-٤٧٤. (٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٠-١١١.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٩-١٥٠.

(٥) البريم هو مكان على النيل يقع بمنطقة أثر النبى حالياً وكان مجاوراً لبركة الحبش.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢١٦، ٣٣١، ٣٨٠.

(٧) قطف الأزهار (مخطوط)، ص ١٤٦-١٤٧.

واثنى الرحالة "النابلسي" على بولاق وذكر في زيارته لقبر الشيخ يوسف بها وأنه رأى على الحائط من نظم الشيخ الفاضل أحمد الدلنجاوي المالكى بخطه قوله:

إذا رمت تأتي مجمع الأنس والصفاء  
بيولاق فأنزل في رياض أريضه  
لتحظى بأنواع التنزه والفرج  
حوت كل أنس في حدايقها فرج (١)

### مظاهر التنزه بالجزر:

وقد حرص بعض السلاطين على التنزه في الجزر وخاصة جزيرة الروضة، التي تعتبر عروس المتنزهات،

وقد اتخذتها أم السلطان شعبان في سنة ٧٧٤هـ مكاناً للاستشفاء وكان ابنها يزورها هناك على شاطئ نيل الروضة بمنظرة الأمير طشتمر الدوادار. (٢)

وكان المؤيد كثير الخروج للروضة والإقامة بالمقياس وقد أمر بتجديد جامع المقياس وحرص على الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج أغلب سنوات حكمه. (٣)

وكان السلطان قايتباي مداوماً على التنزه بالروضة وقضى أوقاتاً عديدة بخرطوم الروضة (٤) أي الطرف الشمالي لها.

وبمناسبة الانتهاء من عمل جامع قايتباي الذي جاء غاية في الحسن، فقد صنع هناك ابن الطولوني معلم المعلمين ناعورة تدور بحمار وهو واقف ويحرك رجله فقط، وكان الناس يتوجهون للفرجة عليها، وكان ابن الطولوني يصنع في كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى، وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ويجتمع الجم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقده حافلة ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والرعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم، واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل (٥).

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري أكثر السلاطين تنزهاً بالروضة حيث يقيم مخيمات ويبت هناك وبصحبه كبار الأمراء والقضاة والعلماء ورجال الدولة ويصحبه معه الضيوف أحياناً (٦)، وكان معظم إقامته بالمقياس حيث بنى القصر على بسطته، وأحياناً يقيم

(١) الحقيقة والمجاز، ص ٢٥٨.

(٢) المقرئ، السلوك، ج٣، ص ٢٠٦، ٢٠٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ١١٤.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٩. (٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨٢، ٢٢٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٣. (٦) نفسه، ج٤، ص ٣٨٤.

بخرطوم الروضة (طرفها الشمالي) وتقام الاحتفالات الكبيرة وتمد الأسمطة والولائم الفاخرة وكان السلطان يستدعى المغاني وأرباب الآلات والمهرجين والمضحكين<sup>(١)</sup>، وتقام بين يديه الاستعراضات البحرية بالحراقات وخصوصاً بعد أن انشأ ذهبية جديدة<sup>(٢)</sup>، وتطلق المدافع والصواريخ وتعمل حراقات نפט وتقاد القناديل والأمشاط وكان سكان البرين (بر مصر وبر الروضة) يوقدون على طولهما آلاف القناديل ويطلقون آلاف الصواريخ وقد تفتكوا فى القصف والفرجة حتى خرجوا فى ذلك عن الحد.<sup>(٣)</sup>

واستمر الحال كذلك فى العصر العثماني، فقد فضل السلطان سليم الإقامة بالمقياس وطرد جنوده سكان الجزيرة ومصر العتيقة وأقاموا مكانهم فى دورهم<sup>(٤)</sup>، وقد قال "ابن اياس" فى خصوص ذلك " وفى مدة اقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بنقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه أنصف مظلوماً من ظالم بل كان مشغولاً ببلذته وسكره وإقامته فى المقياس بين الصبيان المرد".<sup>(٥)</sup>

ومن أمثلة احتفال سليم الأول فى المقياس أنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ هـ لما كان بالمقياس احضر فى بعض الليالى خيال الظل فلما جلس للفرجة قيل أن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شئت عليه ولما انقطع الجبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وانعم على المخايل فى تلك الليلة بما تئى دينار والبسه قفطان مخمل مذهباً<sup>(٦)</sup>.

وظل الولاة بمصر على صلة وثيقة بجزيرة الروضة وذلك لرتاستهم للاحتفال بوفاء النيل سنوياً بالمقياس، وكان خاير بك كثير النزول للمقياس وإقامة الأسمطة الحافلة به<sup>(٧)</sup> مثال لذلك فى يوم الخميس ٦ من ذى القعدة ٩٢٦ هـ حيث أقام فى خرطوم جزيرة الروضة مدة حافلة صرف عليها القاضى بركات المحتسب نحو خمسمائة دينار من جملة ذلك أربعون خروفاً مشوياً وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق ضمنها مأمونية سكب ومأمونية حموية بسكر وسنبوسك بسكر وأرز حلو مسكر وسمك على أنواع مختلفة وأجبان مقلى وأشياء غير ذلك مؤنقة وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى وأطنان قصب وأحمال قشطة ويطح جلاب وأحمال موز وغير ذلك<sup>(٨)</sup>.

(١) نفسه، ص ٣٣٧. (٢) نفسه، ص ٢٩٨.

(٣) نفسه، ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٣،

٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣١١، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٣٩،

٣٤٠، ٣٦٢، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٨٤، ج٥، ص ١٩.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٠٧. (٦) نفسه، ص ١٩٢.

(٧) نفسه، ص ٢١٦، ٢٥١، ٣٠٠. (٨) نفسه، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

وكانت جزيرة الذهب متنزهاً جليلاً في العصر العثماني وكان بعض الولاة والأمراء، يفضلون الخروج إليها مثل ملك الأمراء خاير بك<sup>(١)</sup>، وظلت كذلك حتى آخر العصر العثماني حيث قضى بها الأمير مراد بك أوقاتاً عديدة في قصره هناك.<sup>(٢)</sup>

ونافست جزيرة اروى المعروفة بالجزيرة الوسطى جزيرة الروضة في العصر المملوكي في الاحتفالات والتفرج بها.

وكذلك جزيرة حليمة التي ظهرت سنة ٧٤٧هـ شمال جزيرة اروى واندمجت بها فيما بعد، وقال عنها "المقريزي" "... . تنظاهر الناس بكل قبيح بها وبلغ مصروف كل خص فيها من الفين إلى ثلاثة آلاف درهم، وعمل كل خص بالرخام والدهان البديع وزرع حوله المقائى والرياحين وأقام بها معظم الناس من الباعة والتجار وغيرهم وكشفوا ستر الحياء وبالغوا في التهتك بما تهوى أنفسهم في حليمة وفي الطينة، وتنافسوا في أرضها حتى كانت كل قبضة قياس تؤجر بعشرين درهماً فيبلغ الفردان الواحد بثمانية آلاف درهم ويعمل فيها ضامن يستأجر منها الأخصاص فأقاموا على ذلك ستة أشهر حتى زاد الماء وغرقت الجزيرة فاجتمع فيها من البيغايا والأحداث وانواع المنكرات مالا يمكن حكايته وأنفق الناس بها أموالاً تخرج عن الحد في الكثرة وكانت الأمراء والأعيان تسير إليها ليلاً إلى أن قام الأمير أرغون العلاني في أمرها قياماً عظيماً وأحرق الأخصاص على حين غفلة وضرب جماعة وشهرهم فتلّف بها مال عظيم جداً".<sup>(٣)</sup>

وكان السلاطين يقيمون مهرجانات بحرية عند تلك الجزر مثل السلطان الأشرف شعبان<sup>(٤)</sup>، والمؤيد شيخ الذي كان يعسكر بها أياماً<sup>(٥)</sup>. وكذلك الأشرف اينال ولكن في بعض المرات لم يتتهج الناس بنزوله للجزيرة الوسطى "لعظم ما قاسوه من الظلم في عمل المراكب التي كان قد أعدها للغزو من قلة الإنصاف والجور في حق العمال من ارباب الصنائع وغيرهم".<sup>(٦)</sup>

وكانت الخطط على النيل من أجمل مواضع التنزه في العصرين المملوكي والعثماني بما تتضمنه من حدائق وبساتين وحقول وقصور ومناظر تطل على النيل مباشرة.

(١) نفسه، ص ٤١٣. (٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ٣٤٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٧٠٣، ٧٠٤، وانظر أيضاً، الخطط، ج٢، ص ١٨٦. ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٣٠.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ١٠٢. المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٥٣٧.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٦، ص ١٥٠.

وكانت من أهم تلك الخطط منشأة المهراني، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يكثر من الخروج إلى تلك المنزهات الخلوية وقيمون احتفالات كبيرة بها وخصوصاً أن منشأة المهراني ضمت مكانين حازا القبول والزيارة طوال بقائهما هما قبتى جاني بك بيستانه الكبير وقصر ابن العيني.

وكان الأمير جاني بك الدودار نائب جده الذي لقب أيضاً بعظيم المملكة يقيم احتفالات كبيرة بيستانه وقبته على شاطئ النيل والذي انزل بهما الصوفية، وقيم ولائم عظيمة يحضرها أعيان الدولة، ويحتشد العامة لينالوا بعض الخيرات مما ينعم عليهم تلك المناسبات<sup>(١)</sup>، وكانت بعض الاحتفالات تتم ليلاً حيث تنصب الصواري وتعلق القناديل ويأتي الناس زمراً في البر والبحر بسبب الفرجة وتتزاحم المراكب هناك وتكون ليالي حافلة "قل ان يقع مثلها في القصف والفرجة"<sup>(٢)</sup>.

وكان السلاطين يذهبون كثيراً إلى منشأة المهراني ويقضون أوقاتاً طيبة وخصوصاً في قصر العيني وقبتي وبيستان جاني بك: وتجتمع سائر الناس للفرجة<sup>(٣)</sup> ومنهم السلطان خشقدم الذي أعجب بقصر العيني إعجاباً زائداً وكان ابن العيني يقدم الأسطة الحافلة والفواكه والحلوى وبعد تناول السلطان والأمراء الطعام، يتخاطف العوام ما تبقى من طعام وحلوى وفاكهة<sup>(٤)</sup>. واستمر نزول ولاية مصر إلى نشأة المهراني في العصر العثماني بدءاً من ملك الأمراء خاير بك الذي أقام عدة ولائم حافلة بقصر ابن العيني كان يشرف على إعدادها القاضي الزيني بركات المحتسب. (٤)

وظل الولاية بقية العصر العثماني يفضلون الذهاب إلى جهة قصر العيني<sup>(٥)</sup> ويلعب أمامهم الصناجق والأغوات بعض الألعاب مثل الجريد والرمي بالبندق وغير ذلك<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردى، النجوم، ج٦، ١، ص ٢٧٧. حوادث الدهور، ج٤، ص ٧٦٦-٧٦٧.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٠٦.

(٣) ابن تغري بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٥٤١. ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٢٨، ٤٤٩.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٩٧، ٤٥٧، ٤٦٣.

(٥) الجبرتي، عجائب الآثار، ج١، ص ٥٠٢.

(٦) الدرر دأش، الدرر المصانة، ص ١١٤.

\* البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمي بها الطيور، وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الوسطى بمختلف البلاد ومنها مصر حتى أن خط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقراص البندق. المقرئ، السلوك، ج١، ص ١٧٢، حاشية (٢).

وكانت جهة قصر العينى مكاناً يبعث على رقة النفس والصفاء لهذا أقيمت به عزومات الصلح بين بعض الطوائف المتصارعة مثلما حدث يوم الخميس ١٢ شوال ١١٣٥هـ ١٦ يوليو ١٧٢٣م وكان يوماً عظيماً<sup>(١)</sup>.

وقد اثنى الرحالة النابلسى " على جهة قصر العينى وأبدع فيها قصيدة شعر. (٢)

وكانت الخنط على النيل جنوب القاهرة متنزهات سلطانية أيضاً وكان السلطان قايتباى كثير الخروج إلى المعادى وطرا والمعصرة بقصد التنزه، وكان يبيت هناك أحياناً فعلى سبيل المثال أنه فى يوم الأحد الثانى من صفر ٨٢٣هـ ركب السلطان من القلعة يجمع أمرائه وخاصكيته بغير قماش الموكب وتوجه إلى جهة العدوية<sup>(٣)</sup> وقد نصب بها خيام عظيم عند زاوية الرفاعى على البحر<sup>(٤)</sup> فلما قارب المكان المذكور خلع سلاوية وعباءة فرسه ثم أطلق عنان فرسه غاره وكذا جميع أعيان العسكر إلى المعيصرة<sup>(٥)</sup> فى مشوار واحد ثم عاد إلى مخيمه بالعدوية وأكل السماط مع الأمراء وأقام هناك إلى بعد أذان الظهر فمد مدة أخرى غير أطعمة من أنواع البطيخ والأجبان والمخللات شيئاً كثيراً بحيث كفى العسكر ثم ركب وعاد من وقته إلى القلعة ووصل إليها قبيل العصر<sup>(٦)</sup>.

واستمر قايتباى كثير التوجه إلى تلك الجهات على سبيل التنزه حيث يضيفه هناك شيخ هذه الجهات ويسمى ابن البلاح أو يضيفه الأمير أزيك الأتابكى<sup>(٧)</sup>.

وكان السلطان الغورى يذهب إلى طرا كثيراً ويقيم الموائد الحافلة ويستعرض هناك المراكب الجديدة الكبيرة التى تنشأ فى بولاق وكان يرجع من هناك عن طريق البحر راكباً الحراقة التى يكسر فيها السد والعسكر حوله فى عدة مراكب<sup>(٨)</sup>.

(١) أحمد شلبى، أوضح الاشارات، ص ٣٧٠.

(٢) الحقيقة والمجاز، ص ٢٠٤، ٢٥٦.

(٣) العدوية المقصود بها المعادى حالياً وتسمت بذلك الاسم نسبة إلى دير العدوية الذى لا يزال بمكانه الآن كنيسة العذراء على كورنيش النيل بالمعادى.

(٤) زاوية الرفاعى هذه لاتزال موجودة حتى الآن وهى عبارة عن حجرة صغيرة مغطاة بسقف جمالونى، وله مولد كل عام، وتقع على الطريق الزراعى على بعد ١٠٠ من مدخل المعادى الأول عند المعهد القومى للتنمية الإدارية بكورنيش النيل.

(٥) المعيصرة، هى منطقة المعصرة البلد الآن على كورنيش النيل تميزاً لها عن المعصرة المحطة.

(٦) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٧٥، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩.

(٧) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩، ٣٣، ٥٣، ١٠٧، ١١١.

(٨) نفس المصدر، ج٤، ص ٢١٥-٢١٦.

## استعراضات الاسطول فى النيل :

هناك احتفالات فى العصر المملوكى صارت تقليداً وعادة اتبعت فى ثلاث مناسبات متعلقة بالأسطول، الأولى أيام الانتهاء من صنع المراكب الكبيرة والثانية يوم خروجها للغزو والثالثة يوم عودتها، وكان بعض السلاطين حريصين على متابعة عمارة المراكب المعدة للغزو أو لتأديب قراصنة البحر الأبيض المتوسط منهم الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>، والأشرف برسباي<sup>(٢)</sup>، والأشرف إينال<sup>(٣)</sup>.

وكانت مراكب وسفن الاسطول تقوم بعمل استعراضات بحرية كبيرة ومناورات على القتال البحرى، فيحتشد خاصة وعامة المصريين من كل مكان للفرجة بأعداد غفيرة ويستأجر الناس المراكب فى هذه الأيام بأعلى كثيراً من قيمة تأجيرها فى الأيام العادية وتقوم السفن بدق الكوسات<sup>(٤)</sup> وإطلاق النفوط وكأنها فى اشتباك حقيقى مع سفن العدو<sup>(٥)</sup>.

وأول من أحدث عادة الاستعراضات بالنيل فى العصر المملوكى هو السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى عقب الانتهاء من عمارة مراكب بحرية جديدة، ومن أمثلة ذلك ما حدث يوم الاحد ١٩ رجب ٦٥٩هـ / ١٢٦١م بعد أن أتم الظاهر عمارة عدد كبير من الشوانى الحربية<sup>(٦)</sup> والطرايد<sup>(٧)</sup> وغيرها من المراكب وقد اصطحب بيبرس معه الخليفة العباسى الحاكم

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٧١. ابن اياس، بلدائع الزهور، ج٢، ص ٩٥.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٥٠.

(٤) الكوسات هى صنوجات من نحاس يدق بأحداها على الآخر. انظر:

عبدالمنعم ماجد، نظم الفاطميين، ج٢، ص ٨٢، نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص ١٨٠.

(٥) قاسم عبده، النيل، ص ٩٠.

(٦) الشوانى جمع شينى أو شونه أو شينية، وهى من أهم قطع الأسطول فى عهد المماليك وهى سفن حربية كبيرة معدة للجهاد، وذكر «ابن ممتى» أن الواحد منها كانت تسيّر بمائة وأربعين مجدافاً وفيها المقاتلة والحدافون، وأشار «المقرئى» إلى أن بعضها كان يقل الفان المحارين، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وتحتوى على اهرأ (مخازن) لحزن القمح وصهاريج لحزن الماء العذب. انظر:

ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص ٣٤٠. المقرئى، الخطط، ج١، ص ٩٤. ج٢، ص ١٩٤-١٩٥.

سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٢-٣٥٣. درويش النخلى، السفن الإسلامية، مادة شينى.

(٧) الطرايد جمع طريدة وهى مركب تستخدم حمل الخيل والفرسان وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً، ويقول «دوزى»: الطراد نوع من المراكب الحربية لا يزيد طولها عن سبعة أذرع، وعرضها ذراعين ونصف ذراع، وهى أكثر شبهاً بالبراميل منها بالسفن الحربية وليس لها سقف وتكاد تكون خالية تماماً من المسامير ولذا كان ألواحها الخشبية رقيقة وصلبة وقد استعملها بكثرة صلاح الدين الأيوبرى. انظر: سعاد ماهر،

البحرية، ص ٣٥٤. Dozy, Supp. 2, p34.

بأمر الله إلى ساحل الفسطاط حيث تفرجا على لعب الشوانى فى النيل " على هيئة محاربتها للعدو فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والبوقات والتقوط عماله " وقد خرج الناس لمشاهدتها فكان يوماً مشهوداً<sup>(١)</sup>.

وقد أمر ببيرس بعمارة عدة شوانى سنة ٦٧٠هـ بديلاً عن الشوانى التى تكسرت فى حملته الفاشلة على قبرص سنة ٦٦٩هـ، ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة ٦٧٠هـ إلى أن أنجزت، وفى نصف المحرم سنة ٦٧١هـ لعبت الشوانى بين يديه فكان يوماً مشهوداً<sup>(٢)</sup>.

واهتم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوى فى صناعة مصر سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م وقد عهد بإعداده وتجهيزه إلى الوزير شمس الدين محمد السلعوس، فلما اكتمل عدد السفن ستين شينياً شحنتها بالعدد والآت الحرب ورتب لها عدة من المماليك السلطانية والبسهم السلاح " فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام وصنعوا لهم قصوراً من خشب وأخصاص القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر وبالروضة واكثروا الساحات التى قدام الدور والزرابى بالمائتى درهم كل زريبة فما دونها بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك فصار جمعاً عظيماً وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة والناس قد ملأوا ما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بولاق، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدار وبقية الأمراء قدام دار النحاس ومنع الحجاب من التعرض لطرده العامة فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة وقد عمل فى كل شونه (شينى) برج وقلعة محاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمى عليها وعدة من النقاين فى أعمال الحيلة فى النقب ومامنهم إلا وأظهر فى شونته عملاً معجباً يفوق بها على صاحبه، وتقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى " بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم "، ثم تلاها بقراءة قوله " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . . إلى آخر الآية، هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضاً إلى أن اذن صلاة الظهر فمضى السلطان بعسكره عائداً إلى القلعة فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعتهم وكان شيئاً يجلب وصفه وانفق فيه مال لا يعد . . . وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم . . فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح " <sup>(٣)</sup>.

(١) النويرى، نهاية الارب جـ ٣٠، ص ٢٥، المقرئى، السلوك، ج١، ص ٥٤١، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٢٠.

(٢) النويرى، نهاية الارب، ج٣، ص ١٩٧، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٩٥.

ومن الاحتفالات الكبيرة بمناسبة انتهاء صنع السفن والأذن بتدشينها ما حدث يوم السبت ١٢ محرم سنة ٧٠٢هـ حيث انجزت عمارة أربعة شوانى حربية كبيرة وجهزت بالمقاتلين والعدد والسلاح والعتاد والنفطية، والأزوده وزينت أحسن زينة فخرج معظم الناس لرؤيتها يومين بلياليهما على الساحل بالبرين وكان جمعاً عظيماً إلى الغاية، وكان يرأس الشوانى الأمير جمال الدين أقوش القارى، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر، ونزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والأمراء لمشاهدة ذلك واجتمع من العالم ما لا يحصيهم الا الله تعالى، وارتفعت قيمة أجرة المراكب ارتفاعاً كبيراً "امتلاً البران من بولاق إلى الصناعة بمصر بالناس حتى لم يوجد موضع قدم خال، ووقف نسكر على برستان الخشاب وركب الأمراء الحرايق إلى الروضة" وبدأت المناورات البحرية من لعب الشوانى كأنها فى الحرب، فلعب الأول والثانى والثالث وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، والناس فى سرور بالغ لما يشاهدون ولكن تلك البهجة والفرحة لم تكتمل إذ أن الشينى الرابع بعد ما خرج من مينا الصناعة حتى توسط البحر لعبت به الريح حتى غرقت ونجا الجميع فيما عدا قائد الشوانى الأمير جمال الدين أقوش (١)

وفى سنة ٧٦٤هـ حدث استعراض ومناورة لبعض قطع الأسطول على صفحة نهر النيل، . . . وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله فى سالف الأعصار" حيث أتى الناس من كل مكان للاستمتاع والفرحة بذلك المهرجان البحرى الكبير. (٢)

وفى سنة ٧٦٨هـ فى سلطنة الأشرف شعبان تمت فى صناعة جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية عمارة مائة مركب ما بين غربان (٣) وطرايد لحمل الرجال والخيل جهزها الأمير يلبغا الأتابك للقيام بحملة على جزيرة قبرص رداً على مهاجمة ملكها لثغر الاسكندرية فى المحرم

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٩٥، السلوك، ج١، ص ٩٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،

ج٨، ص ١٥٥-١٥٦، السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٣٩.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٣٥-٣٦.

(٣) الغربان أو الأغرية جمع غراب وهو نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية والأرجح أن هذا النوع من السفن سُمى بهذا الاسم نظراً لمشابهتها لهذا الطائر من حيث السواد لطلائها بالقار والزفت وكذلك لاستواء مناقيرها على حد قول النويرى فى مخطوطة الاعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية، وتختلف الأغرية بعضها عن بعض من حيث الحجم ما بين صغيرة وكبيرة وذلك لعدد مجاديفها التى تتراوح ما بين عشرة ومائة وثمانين مجدافاً، ويقول ابن شداد «من خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية. سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٩-٣٦٠. ابراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص ٢٣٢-٢٣٣. عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك، ج٢، ص ١٩٢.

من السنة السابقة<sup>(١)</sup>، فشحنت الأغرابة بالرجال والآلات والعدد الحربية وزينت بالأعلام، ونزل السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسن من القلعة وركب في موكب حافل وتوجه إلى جزيرة أروى فنزل هناك في المركب المسماة بالذهبية، وقد امتلأت تلك الأراضي بالناس فقدمت الشوانى ولعبت قدامه رجالها بالآلات الحربية كما يفعل عند لقاء العدو ودقت كوساتها ونفخت بوقاتها وزعقت الزمور وفرقت النفوط " فكان أمراً مهولاً ومنظراً جميلاً وأمرأً حسناً"، وقد تجمع على شاطئ النيل الناس من كافة أنحاء المدينة للفرجة على تلك المناورة البحرية وانشرح الجميع في ذلك إلى الغاية<sup>(٢)</sup>.

واستمرت الاحتفالات والاستعراضات البحرية فوق مياه النيل بمناسبة إتمام عمارة السفن والمراكب بقية العصر المملوكى وجزءاً من العصر العثمانى، فعلى سبيل المثال فى سلطنة الغورى تم الاحتفال فى سنة ٩١٤هـ بتدشين ستة أغرابة صنعت فى رشيد وأرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى فخرج الناس يتفرجون عليها وقد زينت بالصناجق والشطافات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور واجتمع الناس هناك أفواجاً فلما كان يوم الثلاثاء ٢٦ شعبان سنة ٩١٤هـ، نزل السلطان الغورى من القلعة وصحبه الأمراء قاطبة والمباشرون وتوجه إلى نحو طرا وضرب له هناك الخيام ثم أحضر بين تلك المراكب الأغرابة فلعبوا قدامه فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والنفوط عمّاله وأرموا قدامه فى البحر عدة مدافع وكان له يوم مشهود، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس، وأقام السلطان هناك إلى بعد العصر ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ولم يقع للسلطان من حين تسلطن يوماً مثل ذلك فى القصف والفرجة، فلما ركب من هناك أخلع على ناظر الخاص كاملية بصمور وأخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ثم عاد إلى القلعة<sup>(٣)</sup>.

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرين صفر ٩١٧هـ ذهب السلطان الغورى إلى طرا حيث احتفل بتدشين مركب كبير فى النيل صنعت فى رصيف بولاق، فلما كمل " زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل" وتوجهوا به إلى طرا وعرضوه على السلطان فى البحر وأرموا قدامه بالمدافع ذهاباً وإياباً كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغرابة وكان يوماً مشهوداً وعاد السلطان بالحراقة التى يكسر فيها السد<sup>(٤)</sup>.

(١) عن حملة ملك قبرص على الإسكندرية فى محرم ٧٦٧هـ، انظر: النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمدت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م)، الأمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٢ تاريخ، ٤١٩٣ تاريخ.

(٢) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١١٣، ١٢٩، ١٣٠، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٢٧، ٢٨، ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٢-١٤٣. (٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢١٥.

وفى سنة ٩١٨ هـ تمت عمارة مركب كبير للسلطان فأحضر إلى ساحل الفسطاط أمام المقياس وصنعوا له ثمانية مراسى فى النهر وعلقوا فى صواريه القناديل والأعلام وأحضرت النفوط وأُنزلت فى خمسين مركباً وحضر الأمراء المقدمون بطبلخاناتهم فى مراكب أمام المقياس " . . . وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة " وكالعادة ارتفعت فيه كرى المراكب فى هذا اليوم فتحصل للنواتية مال كثير من نقل المتفرجين بمراكبهم .<sup>(١)</sup>

واستمرت الاستعراضات والاحتفالات بمناسبة تدشين المراكب فى بداية العصر العثمانى " ففى ربيع الآخر سنة ٩٢٦ هـ نزل ملك الامراء (خاير بك) إلى بولاق وأقام بها إلى قريب النهار فأحضر إليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة بين خرفان شوى وقدر هريسة وأمومية وفاكهة وحلوى وغير ذلك ، ثم أن ملك الامراء عرض المراكب الأخرية التى أنشأها ولعبوا قدامه فى البحر وانشرح فى ذلك اليوم إلى الغاية ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه امبابه وكان يوماً مشهوداً<sup>(٢)</sup> .

وكانت أيام خروج الأسطول فى حملات حربية لغزو جزر البحر المتوسط ومحاربة القراصنة من أهبج الأيام بمصر فكان الناس يحتشدون على الشاطئ للفرجة وترتفع الأصوات بالدعاء والعود الظاهر بين دقات الطبول والزمور والكوسات التى عادة ما كانت تصحب مظاهر الاحتفال بخروج إحدى الحملات .

ومثال لذلك ما حدث فى رجب سنة ٨٢٩ هـ فى زمن السلطان الأشرف برسباى إذ شهد النيل احتفالاً كبيراً بمناسبة خروج الحملات ضد جزيرة رودس فكان ليوم خروج المجاهدين بساحل بولاق نهار يجلب الوصف تجمع فيه الناس للفرجة على المسافرين من الأقطار والبلاد والنواحي " حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة ، وعدى الناس إلى البر الغربى بئر امبابه وبولاق التكرور ونصبوا فيها الخيم والأخصاص " ، هذا وقد امتلأت صفحة النيل بمراكب المتفرجين ، : وأما بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير ، وتقضى للناس بها أيام سرور وفرح وابتهاج إلى الله تعالى بنصر المسلمين وعودتهم بالسلامة والغنيمة<sup>(٣)</sup> .

وفى سنة ٨٤٤ هـ أمر السلطان الظاهر جقمق بخروج حملة للقضاء على " عبث الفرنج فى البحر وأخذها مراكب التجار " وقد خرجت هذه الحملة المكونة من خمسة عشر غراباً فيها المقاتلون من المماليك السلطانية والمتطوعون من عامة الناس من ساحل بولاق فى احتفال هائل

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣٣١ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٨٩ .

حضرته جموع المصريين التي دأبت على مشاهدة مثل هذه الاحتفالات وتكررت الصورة ولنفس السبب سنة ٨٤٦هـ وفشلت الحملة الأخيرة وإن كان خروجها من ساحل بولاق قد تم بين مظاهر الاحتفال المعهودة في مثل هذه المناسبات<sup>(١)</sup>.

وعن الاحتفال عند عودة الأسطول من الغزو والمجاهدة فإن الناس جميعاً تستقبله حيث يتجمعون في ساحل بولاق أو ساحل القسطاط مثلما حدث سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م أذ قدمت بعض سفن الأسطول المصرى إلى ساحل بولاق وهى تحمل الأسرى والغنائم فاجتمع الناس لمشاهدتها والاحتفال بها<sup>(٢)</sup>.

وكان مثلما تجمعوا في ساحل بولاق سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م عند عودة الحملة من قبرص منتصرة ظافرة فى زمن الأشرف برسباى ووافق ذلك يوم وفاء النيل وعيد الفطر "فتضاعفت مسرات الناس من كل جهة"<sup>(٣)</sup>.

ومن العجيب والملفت للنظر أن العامة كانوا يتحنون الفرص للتفرج والمشاهدة على الأساطيل حتى فى حالة نشوب المعارك بين طوائف المماليك، وقد يتعرضون للأخطار إلا أن حب المشاهدة والفرجة كانت تتغلب عليهم، مثلما حدث فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م بعد شهر واحد من تدشين الأغرية التى أشرف عليها الأمير يلبغا أثناء سلطنة الأشرف شعبان، فقد انقلب مماليك يلبغا عليه فأراد خلع الأشرف شعبان وتولية الأمير أنوك ابن اخيه بدله وكان مسرح الانقلاب جزيرة أروى ونهر النيل واستمرت المعارك بين سفن السلطان وبين سفن يلبغا عبر نهر النيل عدة أيام بينما تعطلت أسواق القاهرة "وليس للناس شغل سوى التفرج من شاطئ النيل عند جزيرة أروى على المقاتلين السلطانية واليلبغاوية"، وكان يلبغا قد سلطن الأمير أنوك بالجزيرة، ولكن العامة تعصبت للأشرف شعبان فصاروا يرقصون ويقولون "سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة" يقصدون التهكم بأنوك، وسبح العامة إلى معسكر السلطان الملك الأشرف ببر امبابية واستمرت المعارك بين مراكب الطرفين والرمى بالنشاب والمكاحل والمدافع فترة حتى انتهى الامر بفرار يلبغا إلى القاهرة حيث قتله مماليكه<sup>(٤)</sup>.

(١) العيني، عقدالجمان (مخطوط)، ج٥، ٢٥، ورقة ٧١٨، ابن تغرى بردى، (ط كاليغورنيا) ج٧، ص ١١٢،

١٢٢، عن قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٩٣.

(٢) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ٥٣٣.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ٢٦٩.

(٤) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١٣٣-١٣٦-١٣٦. ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٣٦-٤٠،

السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٤٠-٤١. ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٤٦-

## مظاهر التنزه بالبرك :

وكانت بركة الشعبية قبل دثورها تدخلها الشخاخير فى زمن النيل أى أيام فيضانه وقال عنها ابن دقماق " كانت نزهة المصريين" (١) ربما يقصد سكان مصر الفسطاط .

وكانت بركة الحبش من أجل منتزهات مصر الاسلامية ، وقد جمعت بين جميع طوائف المجتمع المصرى على اختلاف أجناسهم وعقائدهم وطبقاتهم الاجتماعية من خلفاء وسلاطين وأمراء وجنود وأعيان وعمامة ، كما كانت البركة ، وما يجاورها مكاناً للتريض وإقامة المسابقات الرياضية بالخيل والجمال ، كما كانت مسرحاً لتدريب الجنود بالسلاح والرمح .

وكانت هى المنتزه الرئيسى لولاية مصر منذ فتحها وصارت محفل الخلفاء الفاطميين الذين أسعدوا شعب مصر بمظاهر الاحتفالات بها طوال دولتهم (٢) .

وقد اهتم سلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بالتنزه والتريض ببركة الحبش فكان يصحبون معهم الأمراء والجنود والحاشية ويقضون أوقاتاً طيبة بها فينصبون خياماً ويمدون الموائد الحافلة ويقومون بمسابقات للخيل ، وكانوا يستعرضون الهجن التى تعد لأجل الحج ، كما كانوا يصطادون بها حيث أقام الناصر محمد بن قلاوون مسطبة للطير هناك .

ومن السلاطين الدائى النزول للبركة الاشرف خليل بن قلاوون (٣) ، وكان الناصر محمد ينزل إلى المصطبة التى هناك ويأمر بإطلاق الطيور وإطلاق طيور الصيد عليها لاصطيادها (٤) وكان الأمير أنوك ابن الناصر محمد قد عمر حوشاً للطيور وموضعا يتنزه به على بركة الحبش وكان مشغولاً بمغنية اسمها زهرة يقضى غالب وقته معها على البركة (٥) . وكان السلطان المؤيد شيخ كثير الذهاب إلى بركة الحبش حيث يقيم مسابقات بين الهجن ويطمئن على الجمال المعدة لركب الحجاج (٦) . وكذلك كان الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ) يخرج إلى بركة الحبش مع أمرائه ومماليكه ويستعرض تدريبات المماليك الرماحة الذين يلعبون بالرمح أثناء دوران المحمل المعد للحج (٧) .

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ .

(٢) عن الاحتفال ببركة الحبش زمن الفاطميين ، انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) ابن ابيك ، كنز الدرر ، ج٩ ، ص ١٥٣ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .

(٥) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٤٩٢ .

(٦) نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٥٥ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، العيىنى ،

عقد الجمال (بدون ناشر) ، ص ٣٣٤ ، ٣٥٦ .

(٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج٣ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٩٣ .

وقضى السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ) أوقاتاً طيبة ببركة الحبش وبساتين الوزير حيث يلعب هناك الكرة ويستعرض الخيل والإبل المعدة لركب الحجاج، وبات قايتباي بعض الليالي هناك<sup>(١)</sup>. وكان السلطان الغورى يتنقل ما بين بركة الحبش وبين طرا<sup>(٢)</sup>.

وقد توجه ملك الأمراء خاير بك هناك عدة مرات وأعد له القاضى الزينى بركات المحتسب هناك الولايم الحافلة بالطعام والشراب وبصحبه كبار قادة الجيش العثمانى<sup>(٣)</sup>، وكانت بركة الحبش هى مكان إعداد الفرق العسكرية فى العصر العثمانى ومحطة هامة بالنسبة للأمراء الصعيد.

وبالنسبة لبركة الرطلى نجد أنه بالرغم من أن سكان بركة الرطلى يمثلون طبقة متميزة فى المجتمع فى العصرين المملوكى والعثمانى إلا أن العامة وبقية طوائف الشعب يشاركونهم فى التنزه والتفرج بالبركة، وكان الاحتفال هناك على مدار العام، وفى الصيف والخريف يكون فيضان النيل فتمتلاً البركة بالماء وتدخلها مراكب النزهة، وفى فصل الشتاء والربيع تزدهى البركة بمنظر آخاذ من نمو الأزهار والمزروعات بها وخصوصاً منظر القرط والكتان مما هيى احاسيس الشعراء فأفاضوا بالكثير من الأشعار فى وصف البركة وما حولها.

وكان الناس يأتون البركة أيام اجازتهم وخصوصاً أيام الجمع والآحاد حيث يجتمع هناك عالم لا يحصى وتدور بهم الشخاتير التى تدخل البركة عن طريق الخليج الناصرى والخليج الكبير فتدور بأرجائها، وتوج البركة بالنشاط والحوية بما عليها من قوارب وما بها من اسواق عائمة بجميع أنواع المأكولات والمشروبات<sup>(٤)</sup>، وقد تعددت مظاهر الاحتفال بالبركة من السياحة بها وإقامة مخيمات بربوها وإقامة الاحتفالات حيث يشترك أعلام الغناء والموسيقى وأرباب الألعاب وخيال الظل، وتقام إحراقات نفظ هائلة، وكانت المراكب والبيوت حول البركة توفد ليلاً بالقناديل فتجلى الليل نهاراً.

وقد توفرت للمتزهين بالبركة حرية كبيرة لم تتوفر لهم داخل المدينة ففشت بينهم الأمراض الاجتماعية وساعد جو الشراء حولهم فى ذلك فأقيمت الليالى ذات الترف الشديد وحفلت بمجالس شراب من خمور أو من المواد المخدرة التى كانت تزرع بالبركة وحولها بأرض الطبالة، وشاركت النساء الرجال واختلطن بهم وهن متبرجات ويحدثنا «المقرىزى» أنه أدرك

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٩٧، ابن الصيرفى، انباء الهصر، ص ٤٣، ٤٥، ٤٦،

١٣١، ١٤٠، ١٤١، ابن اياس، بدائع الزهور ج٣، ص ١١، ٢٦.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٨٨، ٣٨٠، ٤٤٤.

(٤) المقرىزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٢، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ١٧١.

التنزه بهذه البركة من سنة ٧٧٠هـ حيث كانت بمنأى عن الأحداث التي تدمر البلاد والناس يستمتعون بأيامهم هنالك غاية الاستمتاع، وقد ذكر «المقريزي» أن البركة تأثرت بما حدث بمصر من المحن التي بدأت سنة ٨٠٦هـ<sup>(١)</sup>، إلا إننا نرى هذا التأثير كان مؤقتاً وسرعان ما عادت البركة كما كانت وأعمار من قبل.

وقد حرص بعض السلاطين على الخروج والتفرج بالبركة ولا سيما الملك المؤيد شيخ أكثر سلاطين المماليك خروجاً وكان يستضيفه هناك صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر ديوان المفرد في بيته على البركة الرطلى ويمد له الأسمطة الحافلة<sup>(٢)</sup>.

وكان السلطان قايتباي ينزل ضيوفه هناك، وعلى سبيل المثال نزل قاضى مكة وأخاه وابن أميرها بيتت أم ناظر الخاص يوسف على البركة ورتب لهم ما يكفيهم من أسمطة وغير ذلك فأروا في ذلك البيت بهجة أيام النيل حتى سافروا<sup>(٣)</sup>.

ومثال للأيام الحافلة التي شهدتها بركة الرطلى ما حدث في شعبان سنة ٨٨٦هـ، بمناسبة ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى وكان له مهم حافل جداً وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات وحضر عنده جمجمة بن عثمان<sup>(٤)</sup>، وبات عنده وقد وصف «ابن اياس» ذلك الاحتفال وصفاً دقيقاً إذ كان شاهد عيان للأحداث في نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية بمصر، فقال «وكان النيل في أواخره فأمر كاتب السر سكان البركة بأن يوقدوا في البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت في البركة عشرة أرطال زيت وطبيلة فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم فاحتفلوا في الوقدة وعلقوا في الطبقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضيء بالنور ويكان الإنسان أن يدخل الخيط في خرم الإبرة من عظم ضوء النور، وأحرق حرقاً نفظ حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت الجنت في خدرها بسبب الفرجة على ذلك وبلغ كرى كل مركب أربعة اشرفية، واستمرت هذه الوقدة وحرقا النفط ثلاث ليال متوالية حتى عد ذلك من النوادر التي لم يقع مثلها، واجتمع بالبركة نحو أربعمائة مركب موسوقة بالخلايق، وصار ابن رحاب المغنى عمال في كل ليلة وسائر مغاني البلد من رجال ونساء وانطلقت ألسن النساء بالزغاريت وأنفق في

(١) الخطط، ج٢، ص ١٦٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٥٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٤.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٣.

(٤) جمجمة هو أخو السلطان العثماني بيازيد (٨٨٦-٩١٨هـ / ١٤٨١-١٥١٢م) حضر إلى مصر، ومعه والدته وأولاده خوفاً على نفسه من أخيه السلطان أن يقتله وذلك لأن البلاط العثماني اتبع سنة شنيعة وهي أن من يتسلطن كان يبادر بقتل اخوته حتى لا يزاحموه على العرش.

تلك الليالى من الأموال ما لا يحصى حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على المتفرجين بنحو مائة وعشرين ديناراً جبن مقلى وكذلك ابن الزبيق الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك ، وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر أن لا يبقى ممكناً فى هذا المهم لأجل الجمجمة ابن عثمان كونه كان حاضراً فى هذا المهم وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

حتى تباهت على الخلجان والبرك  
تضىء فى حندس الديجور والحلك  
تخفى شمس الضحى فى دارة الفلك

طابت على بركة الرطلى ليلتنا  
حفت بضوء مصابيح زهت وغذت  
فكان لما تنهاهى حسن وقدها  
وقال الشمس القادري :

لهم دليلاً لذا الظلماء من اللهب  
عن لونها وكان الشمس لم تغب (١)

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا  
حتى كأن جلاليب الدجى رغبت

ومن الأيام الحافلة التى شهدتها البركة أيام شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٩هـ حينما عين السلطان قايتباى الأمير مامائى من خداداد الدوادار الثانى بأن يتوجه رسولاً إلى سلطان الدولة العثمانية «فشرع مامائى فى عمل يرق (٢) حافل وصنع له ردكاً ببركة الرطلى فى زمن الشتاء وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة وعمر الجسر وسكن به الناس أياماً فى قلب الشتاء حتى عد ذلك من النوادر وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى غرب أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاحى وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحواً من عشرين يوماً ثم سافر الأمير مامائى . . .» (٣).

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى فكان ينادى فى سكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية . «وصار ينزل فى المركب ويطوف بالبركة هو وأولاد عمه» (٤).

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

\* ونلاحظ دقة ابن اياس فى وصف تلك الأحداث الاجتماعية فى ذلك النص حتى انه امدنا ببعض أسماء البياعين التى قلما يأتى ذكر لهم فى التاريخ الذى أرخ للملوك والسلاطين غالباً .

\* ونلاحظ ان الأديب قد اقتبس البيت الثانى من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية .

(٢) يرق كلمة تركية معناها سلاح . انظر :

أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، (ط دار المعارف) ص ٢١٠ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٩٩ .

(٤) نفسه ، ج٣ ، ص ٣٩٧ . ويذكر «ابن اياس» عن الناصر محمد بن قايتباى أنه كان أهوجاً فى تصرفاته =

وشهدت بركة الرطلى احتفالات كبيرة زمن السلطان قانصوه الغورى وخصوصاً إنها تضم بيوت الوزراء والأعيان وكبار رجال الدولة، ومنهم على سبيل المثال القاضى الزينى بركات بن موسى المحتسب، وقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م أن تغير خاطر الغورى على الزينى بركات لشجاره مع الوزير الجمالى يوسف البدرى، فحبسه ثمانية أيام ولكنه أفرج عنه بعدها وخلع عليه كاملية صوف بصمور «ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه جماعة من أرباب الدولة فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين وتخلق الناس بالزعران حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطبقتان وانطلقت له النساء بالزغاريت ولافته الطبول والزومر ومغانى النساء وكان ساكناً ببركة الرطلى فى أيام النيل وكان الزينى بركات محبباً للناس فى أيام ولايته على الحسبة. (١).

ومن الأيام المشهودة التى عاشتها البركة أيام شهر شعبان سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، فقد صدر أمر سلطاني بالزينة والاحتفال بالقاهرة لأجل عافية السلطان من مرض ألم بعينه وكان الاحتفال عظيماً ببركة الرطلى لأن الزينى بركات المحتسب كان ساكناً بها فأشهر الزينى «المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وفدة حافلة ويزينوا الطبقتان لأجل عافية الملك فانطلقوا سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطبقتان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ودارت الطبول والزومر فى المراكب يمينوا أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان، ثم أن سكان البركة شرعوا فى أمر الوفدة فعلقوا فى الطبقتان أحمال وأمشاط فيها القناديل فاحتفلوا سكان البركة بوفدة عظيمة ثلاث جمع متوالية وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمراً سلطانياً وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووفدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة» (٢).

واستمرت البركة موضع نزهة واحتفالات عامة فى العصر العثمانى وينقل لنا المؤرخ الواعى

---

= وأفعاله وكانت أيامه كلها فن وقد ضرب «ابن اياس» مثلاً على ذلك أنه كان إذا رأى امرأة جميلة فى بيتها ببركة الرطلى يهجم عليها ويطلع لها من الطاقة يأخذها غصبا ويضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته فارتابت الناس منه.

كما ذكر أيضاً أنه كان يخالط الأوباش وكان به طيش ورعونة وخفة وسفه، ومن الأمور التى كان يفعلها أنه جعل له مركباً فى البحرة التى بالقاعة التى بالقلعة وصنع فيه حلوى وفاكهة وجبن مقلى وكان ينزل بنفسه فى المركب ويبيع كما يصنع البياعون فى بركة الرطلى. انظر: بدائع الزهور. ج٣، ص ٣٥٦، ٣٩٧.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣-٣٣٤.

«ابن اياس الذى أرخ للحياة الاجتماعية بكل دقة وأمانة قلما تطرق إليها كثير من المؤرخين - صورة اجتماعية مسرحها بركة الرطلى -، وفى يوم الأحد ٩ ربيع الأولى سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م» وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد بن سرية وبين شخص يقال له محمد الأوجاقى ويعرف أيضا بالشرابى، وقع بينهما رهان فى فن الموسيقى، فقال محمد الأوجاقى: إن كان ما تدعيه حقاً فنجمع مشايخ أرباب الفن ونجمع مغن البلد قاطبة ويكون ذلك فى يوم الأحد فى وسط بركة الرطلى، وكان ذلك فى زمن الربيع، فلما كان الميعاد حضر جماعة من أرباب الفن، وحضر مغانى البلد قاطبة، وأتوا إلى بركة الرطلى فجلسوا فى وسطها، واجتمع هناك الجم الغفير من المتفرجين، وكان ذلك اليوم مشهوداً فغنى كل أحد من المغانى فى ذلك اليوم أحسن ما عنده من الغناء نوبة، وابتهج فى ذلك اليوم الناس غاية البهجة، وأما محمد بن سرية فإنه احتج بأنه ضعيف فى ذلك اليوم ولم يحضر وقال: الرهان باقى إلى يوم الأحد الثانى فظهر عليه العجز ولم يف بما إدعاه مما تقدم فكان كما قيل فى المعنى:

كل من يدعى بما ليس فيه كذبه شواهد الامتحان

فانفض ذلك الجمع وعد ذلك من النوادر فى الفرجة والقصف» (١).

وقد ظلت بركة الرطلى تتمتع بمكانة كبيرة فى العصر العثمانى كله، يأتيها الناس للفرج والاحتفالات، وقد أورد لنا المؤرخ «البكرى» ما يفيد ذلك فذكر فى ثنايا كلامه عن محمداً باشا<sup>(٢)</sup> الذى تولى حكم مصر سنة ١٠٠٤هـ. . . وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحاً كان نادرة الزمان وفريداً فى الحسن والإتقان أبذل فيه أموالاً كثيرة وتجمل فيه بتجملات غزيرة أصرف فيه من النقد نحو خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد على هذا القدر ونزل فيه البكابر بئذ المذكور «أمى الباشا العثمانى» وذلك بمنزل والدى المطل على بركة الرطلى المعروف بالشاذوان وجلس فيه ثلاثة أيام مع الإحسان لساير الأنام وأرباب الملاهى المستحسنات الآتين عند سماعهم بالفرح من جميع الجهات فكانت مدة الفرح أربعين يوماً لم يذق فيها غالب أهل مصر نوماً مع الوقفات الوافرة ببركة الرطلى التى أصبحت على جميع أمثالها فاخرة وذلك فى زمن النيل السعيد ما زال ممتداً بعون الملك المجيد»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٨٠-٣٨١.

(٢) هو محمد باشا الشريف الذى تولى على مصر لمدة ستين وشهرين وعشرين يوماً (١٠٠٤-١٠٠٦هـ/

١٥٩٦-١٥٩٨م) عمر فى زمنه الجامع الأزهر وجدده وعمر المشهد الحسينى.

البكرى، النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ)،

ورقة ٣١.

(٣) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٣١.

وأما الجسر الذى كان على بركة الرطلى بينها وبين الخليج الناصرى فذكر «البكرى» ان المباني عليه كانت مندثرة أيامه وصار غيبطاً لعمه تاج العارفين الصديقى وأنشأ فيه أنواع الأشجار والزهور فصار بهجة النظار، وبقى أيامه . . «بقية صباية المتفرجين زمن النيل»<sup>(١)</sup>.

وحتى أواخر العصر العثمانى حافظت بركة الرطلى على مكانتها المعهودة حيث يتوجه إليها المتزهون وتعمل بيوتها أفراح تحدث عنها المؤرخون فذكر «الجبرتى» فى ترجمته للأمير على كتبخدا مستحفظان الخربوطلى المتوفى سنة ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م أنه عمل لابنته التى تزوجها على بك الغزاوى «فرحاً عظيماً ببركة الرطلى أيام عدة كانت من مفترجات مصر»<sup>(٢)</sup>.

أما عن بركة الفيل فقد كانت من متنزهات مصر الهامة منذ زمن الدولة الطولونية حتى القرن الماضى، وفى العصرين الفاطمى والأيوبي كان ما حول البركة بساتين وفضاء ولم تنطرق إليها المباني بعد وإنما مجرد مناظر للترهة، وقد وصفها الرحالة «ابن سعيد» الذى زار مصر فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب فقال «إن بركة الفيل ظاهر القاهرة وهى دائرة كالبدر والمناظر حولها كالنجوم وعادة السلطان يركب فيها وتُسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرهم فيكون بذلك منظر عجيب»<sup>(٣)</sup>.

وفى العصرين المملوكى والعثمانى بنى حولها السلاطين والولاة والأمراء والأعيان، القصور والمناظر الفاتنة وسكنوا بها، وكانت الناس تأتى إليها فى أيام النيل وتنتزه بها بالشخاتير وفى الشتاء تكون البركة مزروعة بالزراعات الشتوية التى تعطىها منظرأ أخاذاً، وقد ظلت على هذا الوضع المميز حتى ردمت نهائياً فى أواخر القرن الماضى.

ويكفيها أن ننظر فى ولوحه الكتاب وصف مصر لنرى بها الناس يتحركون على صفحات مياهها بالشخاتير والبعض الآخر يفتش على ضفافها ويلعبون بالآلات الموسيقية .

أما عن بركة الأزبكية فقد كانت منترهًا فى زمن الدولة الفاطمية عندما كانت تعرف ببركة بطن البقرة ولكنها هجرت فى زمن الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله وعمرها بعد ذلك الخليفة الأمر بأحكام الله وظلت كذلك حتى تأثرت زمن السلطان المملوكى الملك العادل كتبغا، وكانت مهجورة فى أيام «المقريزى» إلا بقية منها يجتمع فيها الناس للترهة<sup>(٤)</sup>.

(١) نفسه، ص ٧٣.

(٢) عجائب الآثار، ج١، ص ٣٩٦.

(٣) المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٦، المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٢.

(٤) الخطط، ج٢، ص ١٦٣.

وظلت كذلك حتى عمرها الأمير الأتابكي أزيك من ططخ تلك العمارة الرائعة لتلعب دوراً كبيراً في زمن السلطان قايتباي، وأمست لها الصدارة بين البرك في متنزهات العصر العثماني.

وقد شهدت البركة في أثناء سلطنة الأشرف قايتباي احتفالات كبيرة، وقد حضر قايتباي افتتاح عمارة قاعات الأزيكية في جمادى الأولى سنة ٨٨٢هـ وبات في ضيافة أزيك هناك<sup>(١)</sup>.

وعندما اكتملت عمارة الأزيكية كلها سنة ٨٨٩هـ أصبح يقام فيها احتفال كبير بمناسبة كسر السد على الخليج الذي يدها بالماء والذي تسمى باسم خليج بركة الأزيكية حيث تجتمع عند الأمير أزيك الأمراء المقدمون بالقصر وتأتي الناس أفواجا ويكون لها يوم مشهود كان يصنع بها في كل سنة وقدة حافلة وتحرق بها حراقة نפט وتدخل إليها المراكب قاطبة ويكون لها ليلة حافة لم يسمع بمثلها وينفق في تلك الليلة أموال جمّة بسبب الفرجة بها وتضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة وتكون ليلة حافلة<sup>(٢)</sup>.

وظل الاحتفال بكسر سد خليجها يتم سنويا بعد أيام قليلة من كسر سد الخليج<sup>(٣)</sup>، وكان يقام بها من حين لآخر ولائم كبيرة ووقدات حافلة وإحراقات نפט هائلة<sup>(٤)</sup>، وقد ذكرت من قبل أن الأزيكية أصبحت مقر الأتابكية لهذا كانت للأتابكة أيام مشهودة بها، وكذلك شهدت حفلات زواج كبيرة تخصصهم، مثل زواج الأمير قانصوه خمسمائة على ابنة الأتابكي أزيك في شهر رجب سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م<sup>(٥)</sup>، وزواج أصلباي أرملة السلطان قايتباي من جانبلاط الذي تولى السلطنة باسم العادل في ١٩ شعبان ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م، وكان به من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون<sup>(٦)</sup>، ولم لا وهي زوجة سلطان سابق وأم سلطان سابق.

وكانت الاحتفالات ببركة الأزيكية هائلة في العصر العثماني وخصوصاً أن السادة البكرية كانوا يحتفلون بمولد النبي هناك<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٣٤.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٨.

(٣) نفسه ج٣، ص ٢١٩، ٢٦٧، ٣٠٥، السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ٢٧٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩٦، ٤٦٧.

(٥) نفسه، ج٣، ص ٢٤٢.

(٦) نفسه، ج٣، ص ٤٢٩.

(٧) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ١٣٥، ٥٣١، ٥٩١، ٥٩٣، ج٣، ص ١٢٢.

وكانت البركة تعتبر المنتزه الرئيسي للقاهرة آنذاك، ففي موسم الفيضان تعج صفحة مياهها بالناس فى الشخاتير، وتقام احتفالات عظيمة بربوعها فى مناسبات مختلفة وخصوصاً وإن معظم سكانها كانوا يمثلون أعلى طبقة فى المجتمع فى العصر العثمانى، فتنصب الزينات وتقام السراقات والمخيمات حولها، ويجتمع خلق كثير من سكان القاهرة فى قهاوى الأزيكية ويتجمعون حول الشعراء والمداحين لسماع القصص الشعبى على أنغام الربابة، وكانت تقام فى المناسبات الدينية مواكب الطرق الصوفية بأعلامهم وراياتهم ويقومون بالأذكار فى جوامع الأزيكية.

وقد زار مصر فى العصر العثمانى العديد من الرحالة وكلهم أثنوا على الأزيكية بقصورها وبساتينها وما يتم فيها من احتفالات وألعاب وترفيه.

ومن أوائل الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى «ابن الوزان» المعروف بليو الأفريقى، وقد ذكر أن عادة سكان القاهرة أن يجتمعوا كل يوم جمعة بعد الصلاة فى الأزيكية لأنهم يجدون هناك بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات ويتجمع أيضاً فى هذه الساحة عدد كبير من البهلوانيين وبالأخص من يرقصون الإبل والحمير والكلاب وهو منظر ممتع حقاً<sup>(١)</sup> ويضرب «ابن الوزان» مثلاً شيقاً لذلك<sup>(٢)</sup>، ويذكر أيضاً أنه يجتمع بالأزيكية ضاربو السيوف والعصا والمصارعون وغير ذلك من وسائل التسلية وإلى جانب المغنون والمنشدون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناء فتح مصر<sup>(٣)</sup>.

وقد اهتم الرحالة الفرنسيون بزيارة الأزيكية وقد اعتبروها «من أجمل مناطق القاهرة ومنازلها من أفخم المنازل وهى منطقة منخفضة عن القاهرة تنتشر بها الأشجار الجميلة وبها شوارع جميلة ومساجدها مزينة وعندما تمتلئ بركتها بالمياه يركب السكان المراكب ويتزهون فيها»<sup>(٤)</sup>.

\* = وجانب مظاهر الاحتفال المعتادة بالمولد من حفلات الذكر والإنشاد وغير ذلك كان يصاحب ذلك حفل كبير يسمى حفل الدوسة، وكيفية ذلك أن ينكب نحو من مائة أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتكون أجسامهم سجادة بشرية ثم يسير عليهم شيخ السجادة البكرية فوقهم متمطياً صهوة جواده يتبعه بعض مرديه سائرين عليهم حفاة الأقدام، والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومرديه فوق أجسامهم أن سنايك الجواد لم تصبهم بألم وإن هذا ينهض دليلاً على ولاية الشيخ، انظر: كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، ج٢، ص ١٤٦-١٤٧.

(١) ابن الوزان، وصف افريقيا، ج٢، ص ٢٠٨.

(٢) نفسه، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) نفسه، ص ٢١٠.

(٤) الهام ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، ص ١٠٨.

وبالرغم من إحاطة البركة بالقصور من جميع جوانبها ألا أن أصحاب الأملاك لم يمنعوا أحداً من التنزه بها، وفي هذا المعنى ذكر «الجبرتي» في كلامه عن القصر الذي أنشأه السيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر والذي آل إلى الألفى فيما بعد... . . . وجعل فى أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة وجعلها برسم التزهة لعامة الناس فكان يجتمع بها عالم من أجناس الناس وأولاد البلد شىء كثير وبها قهاوى وبياعون وفكهانية ومغانى وغير ذلك ويقف عندها مراكب وقوارب من تلك الأجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والتزهة ما لا يوصف»<sup>(١)</sup>.

وقد رسم «الجبرتي» أيضاً فى كلامه عن هذا القصر صورة للبركة ومظاهر الاحتفال بها هى والبرك الأخرى، وكانت البركة قد تعرضت لردم جزء منها بالأتربة اثناء ترميم قصر الألفى على يد محمد على باشا، فقال «... . . . ورموا جميع الأتربة فى البركة حتى ردموا منها جانبا كبيراً ردماً غير معتدل حتى شوهوا البركة وصارت كلها كيமானاً وأتربة والعجيب أن انتهى الرغبة فى سكن هذه البركة وأمثالها إنما هو تسريح النظر وانبساط النفس باتساعها واطلاقها وخصوصاً أيام النيل حتى تمتلىء بالماء فتصير لجة ماء دائرة بركاوية مملوءة بالزوارق والقنج والشطيات المعدة للتنزه تسرح فيها ليلاً ونهاراً، وعند دخول الماء يوقودون القناديل بدائرها فى جميع قواطين البيوت فيصير لذلك منظر بهيج لا سيما فى الليالى المقمرة فيختلط ضحك الماء فى وجه البدر والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً وصدى أصوات القيان والأغانى فى ليالى لا تعد من الاعمار إذ الناس ناس والزمان...»<sup>(٢)</sup>.

وكان الباشوات العثمانيون يفضلون بركة الأزبكية كمكان كبير للاحتفالات فيعملون شنك وحراقات ووقدات حافلة بها ويعلقوا الزينات فى ربوعها<sup>(٣)</sup> ونظرا لكبر البركة فإنها كانت مكان أغلب سكان القاهرة فى بعض الأحداث الاجتماعية مثلما حدث فى أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٢٠٥هـ / ١٩٧١م عندما سرت إشاعة بين سكان القاهرة أنه فى منتصف ليلة السابع والعشرين من جمادى الأولى سوف يحدث زلزلة عظيمة تستمر سبع ساعات، واعتقد الخاصة والعامة فى صحة ذلك الخبر، فلما كانت تلك الليلة خرج غالب الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن المتسعة مثل بركة الأزبكية والفيل وخلافهما ونزلوا فى المراكب ولم يبق فى بيته إلا من ثبته الله وباتوا ينتظرون ذلك إلى الصباح فلم يحصل شىء وأصبحوا يتضاحكون على بعضهم<sup>(٤)</sup>.

(١) عجائب الآثار، ج٢، ص ٥٦٧.

(٢) نفسه، ص ٥٦٩.

(٣) نفسه، ص ٧٨.

(٤) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ٩٤.

وفى فترة الحملة الفرنسية اتخذ الفرنسيون البركة وبيوتها مركزاً لهم لأنها كانت أرقى أحياء القاهرة آنذاك فاتخذ بونايرت بيت محمد بك الالفى مقرآله ولقيادة جيشه<sup>(١)</sup>، وتوزعت قصور البركة الفخمة لقيادة الحملة الفرنسية، وفى أثناء ثورة القاهرة ضدهم تجمع أغلبهم من الأحياء الأخرى التى كانوا بها إلى الازبكية<sup>(٢)</sup>.

وقد قام الفرنسيون بالبركة احتفالات كبيرة سواء باعياد ومواسم اسلامية تقريباً للمصريين مثل الاحتفال بالمولد النبوى<sup>(٣)</sup>، أو احتفالات خاصة بهم مثل الاحتفالات بعيدهم القومى<sup>(٤)</sup>، أو غيرها<sup>(٥)</sup>. وقد حرص الفرنسيون على أن تكون هذه الاحتفالات على درجة كبيرة من الإبهار لكنها لم تجد صدى من أغلب أبناء مصر الذين رفضوا الاحتلال والتعامل معه مهما تقرب منهم. وقد اتخذ الفرنسيون البركة منتزهاً لهم فأقاموا بها مسرحاً كوميدياً ومطاعم وملاهى خاصة بهم.<sup>(٦)</sup>

وبالنسبة لباقي البرك نجد أن حتى البرك الصغيرة مثل بركة القرع لم تخل من احتفالات شيقة، فيحدثنا «ابن اياس» أنه بمناسبة انتهاء العمل من بناء جامع الشيخ عبد القادر الدشوطوتى فى ربيع أول ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م وبعد افتتاح الجامع «أشار الشيخ عبد القادر بفتح فم بركة القرع حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطللى، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمى من عند ذيل التمساح، وكان يوماً مشهوداً وعد ذلك من النوادر وصارت المراكب تدخلها فى كل سنة من يومئذ».<sup>(٧)</sup>

وضرب لنا «ابن اياس» مثلاً آخر للاحتفال ببركة القرع وكان ذلك فى بداية العصر العثمانى ففى شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٤هـ «حضر شخص من حلب فهلوان (بهلوان) ونصب فى بركة القرع التى بالجنية صوارى وجبالاً، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الغفير من الخلاق، فلما صعد على الجبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة الفهلوانية وهو واقف على الجبال، منها أنه نصب له أوماج وبتية (برميل) وأرمى بالنشاب فى البتية وهو واقف على الجبال ومنها أنه مشى على الجبال وهو مقيد وعينيه مربوطة بخرقة ومنها أنه مشى على الجبل وفى رجله قبقاب وتحتة ألواح صابون وأرمى فى الأوماج وهو واقف على حمل فيه سيوف مسلولة، ومنها أنه مشى على الجبال مقلوباً وهو مغمى العينين، وأظهر من هذه الأنداب العجائب والغرائب».<sup>(٨)</sup>

(٢) نفسه، ج٢، ص ٢٢٧.

(١) نفسه، ج٢، ص ١٩٣.

(٣) نفسه، ج٢، ص ٢٠١-٢٠٢، ٣٠١.

(٤) نفسه، ج٢، ص ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٦-٢٠٧، ٣٠٦-٣٠٧، ٣٩٦.

(٦) نفسه، ج٢، ص ٢٣١، ٤٠٤.

(٥) نفسه، ج٢، ص ٢٣٠، ٢٤٤.

(٨) نفسه، ج٥، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٧) بدائع الزهور، ج٤، ص ٩٧.

ويذكر ابن ابي السرور البكري «المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ، أن بركة القرع ظلت متنزهاً جليلاً في العصر العثماني لمجاورتها لأملاك السادة البكرية وقال " ويجتمع فيها يوم الجمعة والسبت بالمقصف المعروف بالغواص والمقصف المجاور للجامع الأبيض خلق لا يحصون عدداً، وتصرف في اليومين المذكورين أموال كثيرة جداً»<sup>(١)</sup>.

وذكر «ابن اياس» عن الاحتفال ببركة الفرايين أنه في يوم الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ «صنع الأمير قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وقدة وإحراقه نفظ في بركة الفرايين، مكان داره التي أنشأها هناك، فكانت له ليلة حافلة وعزم على الأمراء عنده، ونقل مراكب صغاراً على جمال إلى بركة الفرايين فكانوا نحوا من ثلاثين مركباً أو دون ذلك وأمر سكان البركة بأن يوقدوا في بيوتهم القناديل والثريات والأمشاط فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ومد أسمطة حافلة للأمراء ولم يقع في بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة في الفرجة والقصف»<sup>(٢)</sup>.

وكما سبق القول أن المنتزهات كانت متاحة لجميع الناس بكافة طبقاتهم الاجتماعية بل أن بعض القصور على البرك أبيحت لتنزه العامة ومثال لذلك حدث في قصر السيد ابراهيم بن مسعود على بركة الازبكية، ونرى مثال آخر يحدث ببركة الناصرية فقد أباح قاسم بك للناس الدخول لداره وحديقته العظيمة على البركة وأباح لهم التنزه في رياضها والتفسيح في غياضها والسروح في خلالها والتفسيؤ في ظلالها، وسماها حديقة الصفصاف والأس لمن يريد الحظ والائتناس، ونقش ذلك في لوح من الرخام وسموه في أصل شجرة يقرؤها الداخولون إليها فأقبل الناس على الذهاب إليها للتنزه ووردوا عليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوى ومساقى ومفارش وأتخاها يفرشها القهوجية للعامة وقللا وأباريق واجتمع بها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغوانى ومطربات. . «<sup>(٣)</sup>.

وكذلك اثنى «النايلسى» «على القصور والبساتين على بركة الناصرية وما يتم بها من مجالس أنس وطرب فذكر أنه هو وجماعة معه ذهبوا الى البستان الزاهى والقاعة العظيمة والمقعد الذى قصرت المحاسن عليه أيما قصر وهو مشهور بقصر حجى باشا مظل على بركة الناصرية وقد حضر النايلسى جلسة سماع وموسيقى فأنشد في ذلك قصيدة<sup>(٤)</sup>.

ومثال متأخر لاحتيال عظيم فى بركة ابو الشوارب بباب اللوق، ذكر «الجبرتى» أنه فى

(١) التنزه الزهية (مخطوط)، ورقة ٨٠.

(٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٨٠.

(٣) الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٥٢٤.

(٤) الحقيقة والمجاز، ص ٢٨٣.

وأخر ربيع الأول سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٦م بمناسبة افراح ابني ولي افندى ويقال له ولي جحا على بتين من أقارب محمد على باشا. . . واجتمعت الملاعب والبهلونات بالبركة وما حولها وبالشارع وعلقوا تعاليق قناديل ونجفات وأحمال بلور وزينات واجتمع الناس للفرجة وبالليل حراقات ونفوط ومدافع وصواريخ سبع ليال متوالية<sup>(١)</sup>.

### مظاهر التنزه بالخلجان :

وكانت الخلجان موضع نزه عظيمة في العصرين المملوكي والعثماني ، وكان الخليج الكبير أحد متنزهات مصر الهامة طوال التاريخ الإسلامي حتى تم ردمه نهائياً عام ١٨٩٨م ، ففي فصل الصيف يكون موسم الفيضان فيدخله الناس بمراكبهم الصغيرة المسماة الشخاتير ، وكان ما حول الخليج خارج القاهرة بساتين وحقول ذات منظر أخاذ<sup>(٢)</sup>.

وقدرسم «ابن سعيد» الذي زار مصر في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب صورة للخليج فقال " وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق وعلية من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه منظر فتان<sup>(٣)</sup> .

ويقول «المقريزي» «وما يرح هذا الخليج متنزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للتنزه إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصري»<sup>(٤)</sup>

وقد أصبح الخليج الناصري منذ حفره سنة ٧٢٥هـ متنزهاً هاماً وفضله كثير من سكان القاهرة على الخليج الكبير<sup>(٥)</sup>.

وكان خليج الزعفران متنزهاً سلطانياً حيث يركب السلاطين إليه ويقمون مخيمات على جانبه بالمطرية على وجه خاص ، وكانوا يبيتون هناك أحياناً ويظلون في لعب ووسط وصلاة وعبادة ومسامرة واستمتاع بجو بديع ومناظر طبيعية رائعة وبيشة نقية . وبني العديد من الامراء القصور والمناظر عليه .

(١) عجائب الاثار ، ج٣ ، ص ٥٠٧ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ص ٣١-٣٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٥) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

ومن السلاطين الذين داوموا على النزول لخليج الزعفران والتتزه بنواحيه السلطان المؤيد شيخ (١) والأشرف برسباي (٢) والظاهر جقمق (٣) وخشقدم (٤) وقايتباي (٥) والغوري (٦).

وكانت القناطر على الخليج الكبير مواضع نزه عظيمة في العصرين المملوكي والعثماني، ومن أهمها قناطر الأوز، حيث كان على حافة الخليج الشرقية عندها البساتين الأنيقة، وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظر البعل وبها عرفت أرض البعل التي هناك (٧).

وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد تجاه قناطر الأوز إلى منظر البعل وصار فاصلاً بين مزرعتين، يجلس الناس تحته يومى الأحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ما لا يقع عليه حصر ويبيع هناك مأكلاً كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركها المقریزی وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة منها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالاً على أن لا يباع فيها السمك إلى نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك ولم يزل هذا السنط موجوداً إلى نحو سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م فقطع، وإلى زمن المقریزی تجتمع الناس هناك ولكن شتان ما بين ما أدركها المقریزی وبين ما كانت عليه حين كتب الخطط (٨).

وقنطرة بنى وائل أيضاً كانت متنزهاً هاماً وكان بجانب هذه القناطر من الجانب الغربى مقعد أحدثه الوزير صاحب سعد الدين بن نصر الله البقرى لأخذ المكوس واستمر مدة ثم خرب، وكانت هذه القنطرة موضع فرجة وبهجة وخاصة أيام زيادة النيل وزمن الربيع (٩).

(١) العيني، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٢٤١، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٨٠، ٤٠١، ٤٠٨.

(٢) المقریزی، السلوك، ج٤، ص ٦٧٩، ٧٦٦، ٩١٠، ١٠٢٧، ١٠٣٧، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٣١٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٩٥.

\* وكان لبرسباي بستان على خليج الزعفران يذهب إليه. العيني، عقد الجمان، نشر الزهراء، ص ٤٣.  
(٣) المقریزی، السلوك، ج٤، ص ١٢٢١، العيني، عقد الجمان (نشر الزهراء)، ص ٥٦٣، السخاوى، الثبر المسبوك، ص ١٢٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٤٢.

(٥) ابن الصيرفى، انباء الهصر، ص ٥٠، ١٥٧، ١٦٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٣٢٨، ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٠٨، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص ٢٧، ٤١، ٦٣، ٦٨، ٩٩، ١٢١.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٢٩.

(٧) المقریزی، الخطط، ج٢، ص ١٤٨.

(٨) المقریزی، الخطط، ج١، ص ١٤٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٩، ص ٤٣.

(٩) المقریزی، الخطط، ج٢، ص ١٤٨.

وعند قنطرة الأميرية كان يحدث احتفال أيام وفاء النيل لأنه كان يقام سد هناك يفتح يوم النوروز. (١)

وظل الخليج متنزهاً عظيماً في العصر العثماني لعامة وخاصة الناس، وكان والى مصر محمد باشا الشهير بدوت كى (٩٦١-٩٦٣هـ/١٥٥٤-١٥٥٦م) مغرمًا بالتنزه فى الخليج (٢) وكانت القنطرة الجديدة متنزهاً كبيراً فى العصر العثماني حيث كان يجتمع بها كثير من الحشاشين لهذا سميت بقنطرة الحشاشين (٣).

والصور التى صورها الرحالة فى القرن ١٣هـ/١٩م تبين لنا الخليج وقد ملته الشخاتير المتزهين بالآتهم الموسيقية وكانت تحيط بالخليج المقاعد والمناظر الجميلة.

وذكر جومار «أن الخليج كان دائماً وسيلة لمتعة الشخصيات الرئيسية والمشايخ وأثرياء المدينة فى زمن الحملة الفرنسية، وكان عادة المشايخ وأثرياء الأقباط التنزه فى المراكب وبصحبتهم الموسيقى والاندماج فى أنواع كثيرة من الألعاب والتسالى» (٤).

## ثانياً : الأعياد والمواسم التى ارتبطت بالمتنزهات

ارتبطت بمتنزهات القاهرة بعض الأعياد والمواسم ارتباطاً مباشراً، فقد كانت المتنزهات مسرحاً للاحتفال بها فى المقام الأول إلى جانب الارتباط غير المباشر بالمتنزهات ببقية الأعياد.

وقد تنوعت هذه الاعياد والمواسم ما بين عيد ذات صفة إسلامية خالصة هو الاحتفال بدوران المحمل وخروجه، وآخر ذات صفة قومية هو مهرجان وفاء النيل، وأعياد أخرى قبطية اتخذت فى العصر المملوكى طابعاً قومياً بمشاركة المسلمين فيها مثل عيد الشهيد وعيد النوروز، إلى جانب ذلك يوجد احتفال محلى بمولد ولى من الاولياء وهو مولد اسماعيل الامببى.

والشئ العجيب هنا أن هذه الاعياد والاحتفالات والمواسم كلها خاصة بمصر وبالأمة المصرية دون بقية البلاد والأمم، فنرى أن الاحتفال بدوران المحمل وخروجه كان وليد العصر المملوكى، لأن مصر صارت آنذاك زعيمة العالم الاسلامى، وكان السلطان المملوكى يلقب بحامى وخادم الحرمين الشريفين، فعلى الرغم من أن مصر كانت من قبل ترسل كسوة الكعبة المشرفة فإن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس قد ابتكر الاحتفال بدوران وخروج المحمل الذى

(١) نفسه.

(٢) أحمد شلى، أوضح الإشارات، ص ١١٢.

(٣) ابن أبى السرور البكرى، التزمة الزهية (مخطوط) ورقة ٧١.

(٤) وصف مدينة القاهرة، ص ١٦١.

يحمل الكسوة وجعله احتفالاً عظيماً جليلاً ليتناسب مع الزعامة الدينية لمصر وسلطانها، وكان ميدان الرملة مسرحاً للجزء الهام من ذلك الاحتفال .

أما المهرجان الثانى العظيم فهو مهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج وهو عيد قومى يعتبر أهم احتفال عرفته مصر منذ فجر التاريخ وظلت مكانته محفوظة فى العصرين المملوكى والعثمانى .

وهناك بعض الأعياد القبطية اتخذت شكلاً قومياً عاماً فى العصر المملوكى مثل عيد الشهيد وعيد النيروز وغيرها من الأعياد التى شارك المسلمون فيها اخوانهم أقباط مصر، ولكن بعض هذه الأعياد لم يكتب لها الاستمرار بقية العصر المملوكى بالرغم من أن مظاهر الاحتفال بها كانت عظيمة قبل ذلك مثل عيد النيروز وعيد الشهيد وعيد الغطاس .

ب- الاحتفال بوفاء النيل " تخليق المقياس وكسر الخليج " :

يعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أكبر وأعظم الاحتفالات بمصر الاسلامية إن لم يكن أعظمها بالفعل، وهو « يوم مشهود وموسم معدود ليس له نظير فى الدنيا»<sup>(١)</sup>. واعتبره المؤرخون من المحاسن والفضائل التى اختصت بها مصر والقاهرة وأهلها وما شاركها فيه غيرها من الأمم<sup>(٢)</sup>، وقد احتفل به المصريون منذ فجر التاريخ وتوارثوه عبر الأزمان حتى بطل منذ وقت قريب .

وكان الاحتفال فى مصر الاسلامية مهرجاناً قومياً شاركت فيه عناصر الأمة جميعاً- مسلمون وذميون- بكافة طبقاتهم الاجتماعية وطوائفهم ابتداءً من السلاطين وانتهاءً بالعامه، وكان الاحتفال فى العصرين المملوكى والعثمانى امتداداً لبعض مظاهر الفخامة والعظمة والشراء التى كانت سائدة أيام الفاطميين<sup>(٣)</sup> والذى كان احتفالهم بذلك المهرجان يفوق الوصف، وقد حافظ خلفائهم فى الحكم- الايوبيين- على كثير من المظاهر بالرغم من أن فترة حكمهم لم تكن تسمح بذلك لأنها امتازت بالحروب والفتن فى أغلب فتراتهما<sup>(٤)</sup>، وبالرغم من ذلك فإن الاحتفال زمن المماليك لفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك ومنهم «دومينكو تريفزيان»، عندما كان على رأس سفارة كبيرة لدى السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، حينما شاهد الاحتفالات التى أقامها المصريون فى هذه السنة

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠ .

(٣) عن الاحتفال زمن الفاطميين، انظر: المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٧٠-٤٧٩ .

(٤) عن الاحتفال زمن الأيوبيين، انظر: أحمد عبدالحميد خفاجى، جوانب من الحياة الاجتماعية فى مصر فى

العصر الأيوبي، (مجلة الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد ٢٩، سنة ١٩٨١).

عند وفاء النيل على ذلك بقوله: «والواقع أن لهم الحق في كل ذلك لأننا نستطيع أن نؤكد أن حياة مصر كلها تتوقف على فيضان النيل وإليه مرجع الثروة الطائلة التي نشاهدها في مصر»<sup>(١)</sup>.

وكان يسبق الاحتفال تمهيداً أساسياً يبدأ قبل الاحتفال بمدة تقرب من شهرين فعند بداية الفيضان يتم مراقبة زيادة النيل يومياً<sup>(٢)</sup>، وكان ذلك يبدأ في اليوم السادس والعشرين من شهر بؤونه القبطي (المعادل لشهر يونيه الميلادي)، فكان ابن أبي الرداد<sup>(٣)</sup> المشرف على مقياس النيل في جزيرة الروضة بحسب ارتفاع مياه النيل في قاع المقياس ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة في اليوم التالي مباشرة، وفي عصر كل يوم يقيس ابن أبي الرداد مقدار الزيادة لكي يعلنها مناديو البحر في الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس، كانوا ينادون على ارتفاع النيل

(١) - Schefer (c). Voyage de Magnifique et Tres Illustre Cheralier Domenico Trevisan (Paris 1864), pp. 206 .

207. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٩٧ .

(٢) حافظ المصريون في العصر المملوكي على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه كل يوم بالأصابع لأن النيل كان - ولا يزال - هو قوام الحياة المصرية، فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة عم الناس القلق وارتفع سعر القمح وتزاحم الناس على شراء الغلال ويكون الغلاء، وعندئذ تفرغ الدولة فيأمر السلطان القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس بالروضة حيث يواصلون تلاوة القرآن الكريم والحديث والدعاء بزيادة النيل، وكذلك يطوف المتنادون في شوارع القاهرة ليأمروا الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج إلى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أو الصحراء للصلاة الاستسقاء والدعاء بزيادة النيل، ويشارك في هذا الدعاء سائر الناس من رجال الدين والعلم والصوفية والأمراء والعوام نساءً ورجالاً صغاراً وكباراً حتى أهل الذمة كانوا يخرجون مع المسلمين إلى الصحراء ويصلون ويدعون من أجل زيادة النيل .

ولم يكن نقص الماء هو السبب في الصلوات والدعاء وإنما كان يحدث أحياناً أن يزيد النيل عن الحد فيفرق البلاد والأراضي فيأمر السلطان بالصلاة والدعاء لأجل ذلك بالإضافة لأوامره بحفظ الجسور وعدم الغفلة عنها . انظر: السخاوي، والتبر المسبوك، ص ٣١٠، المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٤٧٦ .، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٦٨١-٦٨٢ .، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩ .، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٩٨ .

(٣) كان أقباط مصر هم الذين يتولون قياس النيل حتى عام ٢٤٧هـ حين بنى الخليفة المتوكل على الله العباسي بمقياس الروضة فأمر بعزل الأقباط عن ولاية المقياس وأمر أن يتولاه مسلم فتم اختيار ابن أبي الرداد واسمه عبدالله بن السلام بن أبي الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب خراج مصر آنذاك راتباً شهرياً قدره سبعة دنانير، ولما توفي سنة ٨٧٦هـ / ٨٧٩م ظل هذا المنصب متوارثاً في عائلته حتى أن «على مبارك» يذكر أن بعض القياسين في زمنه يذكرون أنهم من سلالة ابن أبي الرداد، وقد كان لعائلة ابن أبي الرداد مكانة كبيرة في العصر الفاطمي إذا كانوا يشتركون في مراسم الاحتفالات وتجري عليهم أرزاق كثيرة ويخلع عليهم الخلفاء الخلع الشميني، وظلت مكانتهم مرموقة في العصر المملوكي ينعمون بالخلع والانعامات من السلاطين والأمراء ولهم رواتب سنوية معلومة، انظر: ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٧٦ .، المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٥٧، ٤٧٧ .، السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٥ .، على مبارك، الخطط التوفيقية ج١٨، ص ٢٠ .

بالأصابع فقط دون ذكر أذرع المقياس<sup>(١)</sup>. ولكن ابن ابي الرداد كان يكتب فى كل يوم بياناً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام فيذكر زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقة من القبطى بعدد الأذرع والأصابع، ويذكر ما كانت زيادته فى مثل اليوم من العام السابق والفرق بينهما فى الزيادة والنقصان، ولا يطلع على ذلك التقدير عامة الناس فإذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد ويصير ذلك مشاعاً عند جميع الناس.<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر بيلوتى الكريتى Pilote De Crete الذى زار مصر فى مطلع القرن التاسع الهجرى/ ١٥م، أنه شاهد زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ثم يتجهون إلى المقياس لكى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال الشوارع والطرق ويصيحون «أن النهر زاد كذا»<sup>(٣)</sup>، وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم «مناديو البحر»<sup>(٤)</sup>، ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الاعلام فى عصرنا الحالى من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس<sup>(٥)</sup>.

وكان الاحتفال بوفاء النيل يتم فى فصل الصيف وخاصة فى شهر أغسطس الموافق لشهر مسرى القبطى<sup>(٦)</sup>، وهو الشهر الذى يبلغ فيه فيضان النيل الدرجة الكافية التى تسمح بالاحتفال وهى ١٦ ذراعاً. ونلاحظ انه ليس للاحتفال يوم محدد مثل باقى الأعياد والمواسم،

(١) النويرى، نهاية الارب، ج١، ص ٦٤، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص ٢٩٤.، السيوطى، كوكب الروضة، ص ٧٤.

\* نلاحظ أنه قبل مجىء الفاطميين إلى مصر جرى ولاية مصر على انه إذا بدأ الفيضان ينادى على ارتفاع النيل يوماً إلا أن حكمة الفاطميين قضت بمنع هذا النداء العلنى نظراً لما يحدثه من بلبله للأفكار واضطراب وقلق بين الشعب ووقوع الغلاء فى أسعار المأكولات والبضائع فكانت الدولة الفاطمية تكتم أمر الفيضان عن الشعب إلى أن يتم مقدار الوفاء ستة عشر ذراعاً وعندئذ يركب الخليفة إلى المقياس للاحتفال بالوفاء. لذلك فى العصر المملوكى استمر النداء بالأصابع دون التصريح بعد أذرع الفيضان حتى يبلغ الستة عشر ذراعاً. انظر: ابن ميسر، تاريخ مصر، ص ٥٤٤، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص ٥١٢.، عبدالمنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسولهم فى مصر، ج٢، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص ٢٩٧.

(٣) Dopp (P.H). L'EgYpte au Commencement de Quinzieme Siecle, D'apres la Traite D'emmanuel Piloti de Crete (Le Caire 1950) pp. 20-21.

(٤) السيوطى، كوكب الروضة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٥) قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك، (دار المعارف، ص ١، سنة ١٩٨٣م)، ص ١٠٧.

(٦) قمت بعمل حصر لتواريخ الاحتفال بوفاء النيل فوجدت أنه قد تم الاحتفال فى شهر مسرى بنسبة ٧٥٪ والباقى إما قبله أو بعده، وهذه النسبة وجدتها فى كتاب تقويم النيل لأمين سامى، ج١، ص ٤١.

وإنما جعل الاحتفال مقرونًا ببلوغ ماء النيل مقدار ستة عشر ذراعاً بأذرع مقياس النيل بجزيرة الروضة وهو ما يعرف بماء السلطان الذي يجب فيه الخراج<sup>(١)</sup> وحينئذ يكون الاحتفال، وكان يوم وفاء النيل أكثر تحديداً بالتقويم القبطي الذي كانت تعتمد عليه أمور الزراعة بمصر وتوارثه الاحفاد عن الاسلاف عبر القرون.

وحينما يفى النيل تكتب البشارات من ديوان الانشاء إلى سائر ولايات المملكة بمصر والشام والحجاز ابتهاجاً بذلك الحدث الجليل حتى تطمئن قلوب العباد وتكون بمثابة اشعار باستحقاق الخراج، وهذه البشارات من خصائص الديار المصرية التي تفرد بها<sup>(٢)</sup>.

ويكون الاحتفال في اليوم التالي لوفاء النيل ستة عشر ذراعاً، وكان الاحتفال يتم على مرحلتين، الاولى الاحتفال بتخليق المقياس والثانية الاحتفال بكسر سد الخليج، وكان ذلك يتم في يوم واحد في العصرين المملوكي والعثماني بينما في العصر الفاطمي كان بينهما بضعة أيام<sup>(٣)</sup>.

ولما كان الاحتفال مهيباً زمن الفاطميين يرأسه الخليفة الفاطمي نفسه، وتبعهم في ذلك الملوك الايوبيين في أغلب سنين حكمهم، فإن مظاهر تلك الأبهة والعظمة قد تراجعت بعض الشيء في العصر المملوكي، فرأينا سبعة سلاطين فقط قد رأسوا الاحتفال بأنفسهم في فترات حكمهم، وأول هؤلاء هو الملك الظاهر بيبرس<sup>(٤)</sup>. بالرغم أن فترة حكمه اتسمت بالجهاد والحرب، وثاني السلاطين كان الملك المنصور قلاوون<sup>(٥)</sup>، وثمة فترة طويلة لم يرأس الاحتفال بعده أحد من السلاطين حتى أيام الملك الظاهر برقوق الذي رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه محاكياً في ذلك الظاهر بيبرس والذي ربما أراد أن يشبهه به وبأفعاله حتى انه اتخذ نفس لقبه، وقد خلفه ابنه الملك الناصر فرج في الاحتفال بنفسه أيضاً، وكذلك الملك المؤيد شيخ رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه، أما الملك الاشرف برساي فلم يرأس الاحتفال إلا

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٨، ص ٣٢٨.

\* انظر نموذج لهذه البشارات في الملحق رقم ٣.

\* وقد ذكر القلقشندي أيضاً أن البشارة بوفاء النيل كانت تتخذ حجة لجباية بعض الاموال للبريدي (حامل البشارة) وإذا كانت الدولة عادلة لا تجبى للبريدي شيء بسبب ذلك صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٣٠.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص ٥١٢-٥١٣، القرظي، الخطط، ج١، ص ٤٧٧.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٣٢٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٧٤، ١٤٢.

\* ومن الملاحظ أن معظم المؤرخين لم يدرجوا اسم السلطان قلاوون فيمن رأس الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج ربما لأنهم لم يطلعوا على كتاب ابن عبدالظاهر.

سنة واحدة وهي سنة ٨٣٣هـ عقب وفاة ابنه الأكبر الذى كان يبيبه فى الاحتفال، وكان آخر السلاطين الذين رأسوا الاحتفال بأنفسهم هو الملك الظاهر خشقدم الذى أراد أن يتشبه بأستاذه الملك المؤيد شيخ.

وفى سنين عديدة كان السلاطين ينيبون عنهم أبناءهم فى رئاسة الاحتفال مثل الأشرف برسباى، والظاهر جقمق والأشرف إينال، أما باقى السنوات فكان كبار الأمراء هم الذين يتولون الاحتفال مثل الأتابك وحاجب الحجاب وأمير مجلس وأمير دوا دار كبير وأمير سلاح.

وكان يحضر الاحتفال كوكبه من الأمراء أصحاب الرتب والوظائف مثل مقدمى الألواف والطبلخانات وأمراء العشرات وغيرهم، ومجموعة كبيرة من المماليك والأعيان والمشايخ ورجال العلم والادب، فضلاً عن تجمع الآلاف من عامة أبناء مصر فى مكان الاحتفال فى جزيرة الروضة وعلى صفحة النيل المبارك وعلى جانبيه الخليج.

وتبدأ مراسم الاحتفالات فى اليوم السابق على تخليق المقياس بأن يعلق والى الفسطاط على الشباك الشرقى للمقياس المواجه للفسطاط الستار الخليفى الأصفر علامة على وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعاً، فيشاهد الستار أهل الفسطاط فيستبشرون بالوفاء<sup>(١)</sup>، وتكون تلك الليلة التى يعلق فيها الستر - من ليالى الفرغ العظيمة بمصر والروضة إذ يوقد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بأجور باهظة وتزين حرايق (مراكب) الأمراء ويجعل فيها الطبلخانات والنفط وأنواع الزينة، فى حين يحضر استادار السلطان الكبير (المشرف على البيوت السلطانية) لبييت فى المقياس وصحبه خازن وبعض الجمدارية (الحراس)، وكذلك يحضر بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بالمقياس، أما المغانى والمنشدين فيستمرون فى الغناء والإنشاد طوال الليل لمن يكون حاضراً فى دار المقياس<sup>(٢)</sup>

أما يوم الاحتفال فيركب السلطان أو من ينوب عنه من قلعة الجبل صباحاً ولا يكون ركوبه بمظلة ولا رقية فرس ولا غاشية التى تكون بمواكبه الأخرى الخاصة بالأعياد أو ركوب الميدان بل يقتصر على الصناجق والطبرداريه والجاويشيه ونحو ذلك<sup>(٣)</sup>، ويتزل السلطان من القلعة إلى باب السلسلة (باب العزب حالياً) إلى ميدان الرميلى فشارع الصليبي فشارع الجسر الأعظم تحت الكيش فيصل إلى قناطر السباع فيعبرها، ويسير الموكب حتى يصل إلى دار النحاس

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧-٤٨.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٤-١١٥، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٩٨-١٩٩.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧.

بجوار كوبرى الملك الصالح حالياً) فيركب هناك الحراقة السلطانية المسماة الذهبية<sup>(١)</sup>، ويركب الأمراء ومرافقه المراكب التى تزينها الأعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات وتدق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهري إلى دار المقياس، وقد ماجت صفحة النهر بمئات من مراكب النزهة.<sup>(٢)</sup>

وكانت الجماهير الغفيرة تصطف على جانبي الطريق من ميدان الرميطة إلى دار النحاس لرؤية موكب السلطان حتى أن الدكاكين والدور التى بالصليية والكباش كانت تؤجر فى ذلك اليوم للمتفرجين لرؤية الموكب.

وعند وصول السلطان أو من ينوب عنه إلى مقياس النيل بطرف جزيرة الروضة يمد سباط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة حتى إذا تناول الكبراء ما يشتهون يسمح للعامّة «باختطاف» ما تبقى من أطعمة «ولا يمنع أحد من ذلك»<sup>(٣)</sup>

وبعد الفراغ من الطعام تتم عملية التخليق<sup>(٤)</sup> وذلك بأن يذاب الزعفران أو المسك والعنبر فى ماء الورد فى إناء فضى ويتناوله ابن ابى الرداد الذى يلقى بنفسه فى فسقية المقياس ومعه ذلك الإناء فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) ثم جوانب الفسقية<sup>(٥)</sup>.

ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستر ويفرق الخلع والتشريف على من له عادة بذلك مثل والى القسطاط ورئيس مركب السلطان (الذهبية) ورؤساء مراكب الأمراء وغيرهم وتنتهى بذلك أول مرحلة للاحتفال لتبدأ المرحلة الثانية وهى عملية كسر سد الخليج.<sup>(٦)</sup>

(١) كانت الحراقة المسماة الذهبية مركباً كبيراً خاصاً بالسلطان، وكانت من شعار المملكة ولاسيما يوم وفاء النيل وكانت السلاطين تتوجه بها إلى المقياس، وكان بها ستون مقدافاً، وقد أبطلها السلطان قايتباى ضمن أشياء أبطلها من شعائر المملكة فى زمنه إلا أن السلطان الغورى أعاد بناء واحدة أخرى تماثلها صنعت فى بولاق وزينت بالصناجق والأعلام ووضعت بها الطبول والزمور والنفوط. ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٣٠، ج٤، ص ٢٩٨.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ٨٧، الكتبي، مباحج الفكر، (مخطوط بدار الكتب)، ج١ ورقة ٨٦، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٢٣٣، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٩، ابن ظهيره، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠.

(٣) كانت نفقات تلك الوليمة تجبى من الأهالى حتى أبطلها السلطان الملك المنصور فلاوون وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال. ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٦٣.

(٤) كلمة التخليق مشتقة من الفعل خلق أى دهن بالخلوق وهو العطر الأحمر. Dozy. Suppl. p. 309.

(٥) القرينى، الخطط، ج١، ص ٤٧٣، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٨. ٤٧.

(٦) ابن دقمان، الانتصار، ج٤، ص ١١٥.

ومما يجدر ذكره هنا أن نقول إن عملية التخليق هذه مرتبطة بوفاء النيل ستة عشر ذراعاً بأذرع المقياس، أما إذا لم يبلغ الستة عشر ذراعاً ففي هذه الحالة لا يخلق المقياس لأن التخليق مرتبط بالوفاء<sup>(١)</sup>

أما المرحلة الثانية للاحتفال وهى كسر سد الخليج فكانت تتم عقب المرحلة الأولى مباشرة من نفس اليوم، وذلك بأن ينزل السلطان أو من ينوب عنه من شبك المقياس المطل على النيل ويركب حرقته الذهبية<sup>(٢)</sup> التى كانت تزين بأنواع الزينة المختلفة وتسبح الحراقة فى ماء النيل وحولها حراريق الامراء وقد شحن البحر بمراكب وقوارب المتفرجين يسرون خلف السلطان والامراء فى استعراض نهري كبير تطلق خلالها المراكب مدافع النفوط والصواريخ وسط تهليل الطبول والزمور، حين يصل الموكب النهري إلى فم الخليج<sup>(٣)</sup>. وفى موقع السد يكون نائب السلطان أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد وعند السد ينزل السلطان عن فرسه ويمسك بمعول من الذهب ويضرب السد ثلاث ضربات إيداناً بكسر السد فيأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون ذلك السد حتى يجرى الماء فى الخليج فى أقرب وقت. ثم يمتطى السلطان صهوة جواده ويعود من نفس الطريق التى أتى منها إلى القلعة ويشتر فى طريقه على الجماهير الغفيرة على جانبي الطريق خفائف الذهب والفضة حتى يصل إلى القلعة.<sup>(٤)</sup>

وقد حضر عملية كسر سد الخليج رحالة اجنبي يدعى انسلم فقال «أن كسر الخليج تم أمامه بمعول من الذهب الخالص».<sup>(٥)</sup>

وظل الاحتفال بوفاء النيل يوماً مشهوداً فى القاهرة ولا سيما جزيرة الروضة «حيث يحشر الناس ويحجج فيه إلى المقياس»<sup>(٦)</sup>، ففي ذلك اليوم تغلق فيه الأسواق فى مصر والقاهرة ويعم الناس البشر والسرور فيهربون إلى النيل على هيئة مواكب حيث يستأجرون السفن والمراكب ويملاونها بالطرب والغناء<sup>(٧)</sup>.

(١) بيبس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ٤٧٦. سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.  
(٢) أحياناً كان السلطان يذهب إلى المقياس بالذهبية فيخلقه ويذهب بعد ذلك لكسر السد راجياً الحراقة الصغيرة المعروفة بالقرادة. انظر: ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٤٧٩، ٥٠٢، ٥٤٧.  
(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٨، الكتبي، مباحج الفكر ومناهج العبر، ج١، ق ٢، ص ٨٦  
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٢٢٣، ابن شاهين الظاهري زبدة كشف الممالك، ص ٨٧.  
النويرى، نهاية الارب، ج١، ص ٢٦٤. (٤) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧-٤٨.  
(٥) Dopp (P.H), Le Caire un Par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age. (Bulletin de Le Societe Royale de Geographi D'Egypte. Tome 26 p. 190, L'Egypte au Commencement, p. 21.

(٦) السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٣٧.

(٧) Dopp. L'Caire Vu.. T 24 p. 122 & L'Egypte.. p. 21. (٧) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.

وأحاطت مظاهر الفخامة والأبهة والعظمة احتفالات وفاء النيل وكسر سد الخليج حتى أواخر الدولة المملوكية باستثناء بضعة أعوام إما كانت بسبب الفتن والاضطرابات السياسية أو بسبب عدم وفاء النيل<sup>(١)</sup>.

ونستخلص من المصادر أن الاحتفال بوفاء النيل كان يتم أثناء النهار وقد ربط بعض مفسرى القرآن الكريم بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشُر الناس ضحى»، وبين الاحتفال بوفاء النيل على أساس أن اجتماع الناس للاحتفال لتخليق المقياس يكون وقت الضحى، وإن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل عند الفراعنة<sup>(٢)</sup> أو هو يوم النيروز<sup>(٣)</sup>. ولكن طبقاً للقول بأن «لكل قاعدة شواذ» فإنه يوجد استثناء فى ذلك، ففي سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٩م كسر السد ليلاً وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكرها المؤرخون التى حدث فيها ذلك، ويرجع سبب ذلك لأن السلطان الملك الناصر محمد بن قايتهى أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ولكن الامراء منعه خوفاً من الفتنة فنزل ليلاً فى خواصه وفتح السد فأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخلجان والبرك فتعجبوا لأن ذلك ما وقع فى الجاهلية ولا فى الاسلام وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء وما كان يقع فيه من القصف والفرجة. وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه من صادق :

منذ السلطان قالوا  
كسر السد ليليل  
الورى بالكسر جبر  
فغدا للناس كسر<sup>(٤)</sup>

### الاحتفال بوفاء النيل فى العصر العثمانى :

فى العصر العثمانى استمرت نفس المراسم الرسمية والشعبية التى كانت تتم فى العصر المملوكى للاحتفال بتخليق المقياس وفتح سد الخليج، وقد رأس الاحتفال طوال ذلك العصر ولاية مصر أنفسهم نائبين عن السلاطين العثمانيين فينزل الباشا (الوالى) ومعه الصناجق (حكام الأقاليم المصرية) وقاضى العسكر وكبراء الدولة ويذهبون إلى المقياس عندما يقارب النيل الوفاء ويمكثون هناك قبل الوفاء أياما فى لهو ومتعه من مأكّل ومشرب وطرب حتى يتم الوفاء ثم يعود الوالى ومن معه إلى الخليج فيأمر بفتحه ويعود إلى القلعة، وكان الشعب يشارك فى هذه الاحتفالات بالتجمع والتبهرج وإظهار الفرحة والزينة.<sup>(٥)</sup>

(١) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٧٤٨-٧٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٦٩.

(٢) النوبرى، نهاية الارب، ج١، ص ٢٦٤، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٠، السيوطى، حسن

المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٩، الكتبى، مباحث الفكر، ج١، ق٢، ورقة ٨٦.

(٣) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٨. (٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٥) محمد كمال السيد، اسماء ومسميات، ص ٧٢.

وقد وصف لنا «ابن اياس» الاحتفال فى السنوات الأولى لغزو العثمانيين لمصر منذ سنة ٩٢٣هـ حتى ٩٢٨هـ، فذكر الاحتفال سنة ٩٢٣هـ قائلاً «وكان الذى فتح مصر فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة وبطل ما كان يعمل فى مثل ذلك اليوم من الأسمطة التى كانت تصنع بالمقياس والمجامع الحلوى والمشنات الفاكهة التى كانت تفرق فى ذلك اليوم فنزل يونس باشا الحراقة السلطانية وتوجه إلى السد وفتحه على العادة. ولكن أين الثريا من يدى المتناول بالنسبة لما كان يعمل فى يوم الوفاء بمصر. (١)

وذلك الوصف يرجع بلا شك لحالة الحزن والأسى التى صارت عليها مصر عقب أشهر قليلة من الفتح العثمانى، وعاد الأمر كما كان أيام المماليك من البهجة والفرح فى السنوات التالية، فذكر عن سنة ٩٢٤هـ «... ونزل ملك الامراء (خاير بك) وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة وحضر الامراء العثمانية ثم نزل الحراقة وصحبتة الامراء العثمانية وتوجه إلى السد وفتحه وكان يوماً مشهوداً وأوكب وهو طالع القلعة موكباً حافلاً» (٢)

كما وصف ابن اياس الاحتفال سنة ٩٢٥هـ فقال «لما طلع ابن ابى الرداد واخبر ملك الامراء بوفاء النيل المبارك نزل من القلعة وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى فنزل فيه وتوجه إلى نحو السد الذى عند رأس المنشية ففتحه وأظهر التعاضم فى ذلك اليوم وفرق المجامع الحلوى والمشنات الفاكهة، وكان ذلك اليوم مشهوداً من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمور ثم ركب ملك الامراء (خاير بك) من هناك وتوجه إلى القلعة ثم توجه الأمير كمشباغى الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد (٣). وفتح سد القنطرة ورجع إلى داره وكان يوماً مشهوداً وقد عمّت هذه الفرحة لكل مسلم وكافر وكانت فرحة عامة لسائر الناس» (٤)

وحدث نفس الشئ فى سنة ٩٢٦هـ (٥) وفى سنة ٩٢٧هـ (٦) وفى سنة ٩٢٨هـ (٧).

وقد وصف لنا المؤرخ «ابن ابى السرور البكرى» صورة لحفلات الوفاء فى العصر العثمانى فقال «وأما فى الدولة العثمانية - أيدها الله تعالى - فيركب بيكلر بيكى مصر (ملك الامراء) فى

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٩٦.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٦٩.

(٣) نستتج من ذلك انه كان هناك سدان الأول عند فم الخليج وهو الذى كان يتم فتحه بصفة رسمية والثانى عند قنطرة السد ويفتحة والى القاهرة والأهالى.

(٤) بدائع الزهور، ج٥، ص ٣١٠.

(٥) نفسه، ص ٣٥١.

(٦) نفسه، ص ٤٠١.

(٧) نفسه، ص ٤٧٢.

وقت الصباح من القلعة وينزل إلى بولاق للمراكب التي أعدت له وللصناجق والأمراء تجاه الترسخانة فينزل بها وتقلع المراكب التي هو بها وتقلع خلفه جميع الصناجق بمراكبها والأمراء يضربون المدافع العديدة، ولا يزال سائراً من نحو مصر العتيقة إلى المقياس بالروضة، وذلك حين يبقى لوفاء البحر دون العشرين إصبع، ويجلس بالمقياس المذكور إلى أن يفى البحر ستة عشر ذراعاً فإن رأى خطأ جلس بعد الوفاء اليوم واليومين ويجعلون الحراقات والعرايس النفيسة ويقع من القصف واللهو مالا يحصى. وفي يوم ارادة البكلر بيكى فتح السد يجعل سماطاً عظيماً قبل طلوع الشمس للصناجق والجاويشيه والمتفرقة وغيرهم من العساكر ويحضر عنده قاضى مصر آذ ذلك، وحين الفراغ من السماط يخلع على كاشف الجيزة «وعلى بن الخبيرى شيخ عربان الجيزة وعلى الصوباشى وعلى أمين الشون وعلى جنجى باش وعلى والى مصر القديمة وعلى والى بولاق وعلى أمير البحرين وعلى أمين الخضرة ثم يقوم هو وقاضى مصر إذ ذلك وجميع الصناجق فى المركب معه، ولا يزال سائراً وطبول الصناجق تضرب خلفه إلى أن يأتى السد فيفتحه ثم يصعد من على السد إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً»<sup>(١)</sup>.

وقد حرص بعض الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى على وصف تلك الاحتفالات التى لفتت انظارهم، ومن أوائلهم الحسن بن الوزان المعروف بليو الافريقى (١٤٩٤-١٥٥٢م) الذى زار مصر فى السنين الأولى للفتح العثمانى لمصر فقال «... وتقام بالقاهرة حفلة كبرى فى الأيام الأولى لقيضان النيل يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى حتى كأن المدينة تنقلب رأساً على عقب وتأخذ كل أسرة زورقاً تزينة بأرفع القماش وأزهى الزرابى، وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة ويكون جميع السكان فى الزوارق يتسلون حسب امكاناتهم ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال مع أمراءه الكبار وضباطه فيذهب إلى قناة مسورة تدعى القناة الكبرى (يقصد الخليج) وهناك يتناول شاقورا ويشرع فى هدم الجدار (يقصد سد الخليج)، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذى كان يمنع وصول الماء فيتدفق النيل حالاً فى القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك إلى باقى القنوات بالضواحي والمدينة المسورة حتى ان القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهه بالبندقية فيمكن الذهاب بالزوارق إلى جميع الاماكن المسكونة وكل أطراف مصر ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال بحيث أن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة فى هذا الأسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعمطور والمغنيين، وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين»<sup>(٢)</sup>.

(١) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٦٧، ٦٨. قطف الأزهار من الخطط والآثار، ص ٨، ٩، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١٨، ص ٣٣-٣٤، النواى، نهر النيل، ص ١٦٤-١٦٥.

(٢) وصف افريقيا، ص ٢١٤-٢١٥.

ونفس الوصف وصفة الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرنين ١٠، ١١هـ/١٦، ١٧م، ومنهم «باليرن» Jean Palern الذى زار مصر سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م الذى ذكر « أن الاحتفال بفتح الخليج من أهم الاحتفالات وأنه ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا الذى يسير فى موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس فى جدار الخليج فيتدفق الماء وتستمر الاحتفالات سبعة أيام»<sup>(١)</sup>، وذكر مثل ذلك بيلون Pierre Belon de Mona الذى زار مصر فى الفترة ما بين ٩٥٤-٩٥٦هـ/ ١٥٤٧-١٥٤٩م<sup>(٢)</sup> أما كوبن Coppin الذى زار مصر مرتين الاولى بين سنتي ١٠٤٨-١٠٤٩هـ من آخريناير ١٦٣٨ حتى يوليو ١٦٣٩م والثانية عام ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م وعمل خلالها اتصالاً للفرنسيين فى دمياط، فقال «تقام الاحتفالات فى جزيرة الروضة ويسهر سكان القاهرة ويتنزهون فى المراكب النيلية وهم يشعلون المصابيح وينشدون الأغاني ويتوافدون على الروضة الصناع والحواة «أصحاب جلا جلا» ويغطس الأطفال فى النيل وهم عرايا، ويحرص الممالك على حضور الاحتفال فى مراكب كبيرة مزينة بالأعلام الملونة ومنهم من يقيم معسكراً على البر لاستقبال الزوار، ولا يقتصر الاحتفالات على الروضة فقط وإنما تقام الاحتفالات فى الأزبكية حيث تمتلئ البركة بالمياه فتسير المراكب فيها»<sup>(٣)</sup> وسجل مثل تلك الانطباعات الرحالة والقناصل الفرنسيون فى القرن ١٢هـ/ ١٨م ومنهم بول لوكاس<sup>(٤)</sup>

ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر ان محمد باشا النشنجى الذى تولى على مصر فى المدة من ١٧ رمضان ١١٣٣هـ حتى ١٠ ذى الحجة ١١٣٨هـ الموافق من ١٢ يولية ١٧٢١ حتى ١٠ يولية ١٧٢٦م قد بنى كشكاً على حافة الخليج بدلاً من الخيمة التى كانت تعد للباشا فى ذلك المكان<sup>(٥)</sup>. كما حرص أصحاب الدور التى على جانبي الخليج على إقامة مناظر وأماكن خصصت للضيوف للاحتفال بها وتقديم الطعام والولائم أثناء وفاء النيل للضيوف سواء أكانوا رجال الدولة أو العامة<sup>(٦)</sup>.

(١) Palerne, (J), Le Voyage en Egypte 1581 Le Caire 1970, p. 52.

الهام ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م)، ص ٨٩، ١٠٨.

(٢) Belon, (P), Le Voyage en L'Egypte 1547, Le Caire 1969, P. 110.

(٣) Coppin. (J) Les Voyages de Jean Coppin 1639. Le Caire, 1971. pp. 74 - 78.

(٤) Lucas (P). Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant Rouen 1772 Tome I pp 76 - 78.

الهام ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢)، ص ٣٢١.

(٥) أحمد شلى، أوضح الاشارات، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٦) الجبرتى، عجائب الآثار، ج٣، ص ٢٧١، ٤٠٧، ٤٨٥.

ومن الملاحظ ان فى بعض السنوات لم يتم عمل الموسم والمهرجان إلا فى أضيق الحدود بسبب القلاقل والفتن وانعدام النظام بالقاهرة آنذاك<sup>(١)</sup>

وفى اثناء وجود الحملة الفرنسية بمصر (١٢١٣- ١٢١٦هـ/ ١٧٩٧- ١٨٠١م) حاول الفرنسيون أن يتقربوا إلى المصريين بالمشاركة فى أعيادهم ومواسمهم واحتفالاتهم التى من أهمها مهرجان وفاء النيل ، ولكن أغلب الشعب لم يشارك فى تلك الاحتفالات ولم يشترك سوى بعض الموظفين الرسميين والنصارى الشوام والقبط الأروام والافرنج وقليل جداً من الناس ، بالرغم من مظاهر الاحتفال الضخمة التى عملها الفرنسيون فى السنوات الثلاثة التى قضوها بمصر<sup>(٢)</sup> .

واستمر المهرجان يقام بانتظام فى عصر اسرة محمد على<sup>(٣)</sup> . وكان يسوده احياناً الفخامة وأحياناً التواضع حتى أهمل تماماً منذ منتصف هذا القرن ونسى الآن تماماً على المستويين الرسمى والشعبى وضاع احتفال بدأ منذ فجر التاريخ واستمر بضعة آلاف من السنين وسبحان الله الباقي الدائم الأزلى .

### جـ - عيد الشهيد :

ارتبط بوفاء النيل فى العصر المملوكى مهرجانات وأعياد اخرى لا تقل فى مظاهر الاحتفال بها عن مهرجانات تخليق المقياس وكسر سد الخليج وبخاصة على المستوى الشعبى ومن هذه الأعياد عيد الشهيد وعيد النيروز . . . وغيرهما من الأعياد القبطية .

ولما كانت مصر تسودها أغلب الأحيان مشاعر المودة والتآخى والسلام ، ويسود أبناءها وشائج الوحدة الوطنية بكافة عقائدهم ومللهم وطوائفهم ومكائنتهم الاجتماعية فقد كان عيد الشهيد هذا عيداً قبطياً اتخذ طابعاً قومياً فى العصر المملوكى ، وقد وصفه «المقريزى «بأنه» من أنزه فرج مصر»<sup>(٤)</sup> .

(١) نفسه، ج١، ص ٦٣، ٦٣٣، ٦٣٤، ج٢، ص ٥٣٧، ج٣، ص ٨٣، ١٣١ .

(٢) الجبرتنى، ج٢، ص ٢٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٤٣٧، ج٣، ص ٣١٧-٣٢٠ .

(٣) نفسه، ج١، ص ٥٠٣، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٩، ٥٥٣، ٥٨٠، ٦٣٣، ج٢، ص ٢٩، ٥٨، ٨١، ٨٧،

١٦٦، ٢٠٠، ٣٠٢، ٤٣٧، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥٣٧، ٦٠٠، ج٣، ص ٢٧، ٨٣، ١٣١، ٢١٠، ٢٣٩،

٢٤٠، ٢٧١، ٣٠٦، ٣٣٢، ٣٥٢، ٤٦٥، ٤٨٥، ٥١٥، ٥٦٤، ٥٨٠، ٦٠٣، ٦١٤ .

ادوارد ولیم لین، المصريون المحدثون- شمائلهم وعاداتهم»، ترجمة عدلى طاهر نور، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤١٥-٤٢١ . كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر، ج١، ص ١١٨-١١٩ . على مبارك،

الخطط التوفيقية، ج١٨، ص ٣٤، أحمد زكى، مهرجان وفاء النيل وخطأ المحكمة الشرعية العليا،

مقالة بمجلة المقتطف، ديسمبر ١٩٢٣هـ، ص ٣٢٩-٣٣٤ .

(٤) الخطط، ج١، ص ٦٨ .

أما عن تاريخ بدء الاحتفال بهذا العيد المصري الخالص فلم نعلم بالضبط متى بدأ أما عن كونه مصرياً خالصاً فيرجع السبب في إقامته إلى أن أقباط مصر كانوا يزعمون أن نهر النيل لا يزيد إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين الشهداء في مائه، وكان الإصبع محفوظاً في تابوت خشبي عليه قفل من الحديد في كنيسة على النيل في منطقة شبرا الخيمة<sup>(١)</sup>.

وكان الاحتفال يتم في اليوم الثامن من بشنس القبطي الموافق لشهر مايو من كل عام وكان يمتد أحياناً ليومين أو لثلاثة أيام<sup>(٢)</sup>.

وكان الاحتفال يتم على صفحة النيل وعلى شواطئه وفي جزره. وخصوصاً جزيرة الوراق لمواجهة شبرا الخيمة التي بها الكنيسة التي تحوى الإصبع. حيث يقام مهرجان كبير لا يقل في عظمته عن مهرجان تخليق المقياس وكسر سد الخليج.

وفي يوم الاحتفال يجتمع النصارى من جميع القرى ويشاركهم بعض المسلمين أيضاً وأغلب عامة أهل القاهرة بكافة طبقاتهم وطوائفهم فيمتلئ النيل بالقوارب، وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل بأعداد كبيرة وفي الجزائر، وكان أعيان القبط من المباشرين ينزلون في المراكب وقت القاء ذلك الإصبع في البحر وكانت الشموع توقد في المراكب مع القناديل حتى يضيء منها البر، وتحرق النفوط في تلك الليلة حتى تدهش العقول من رؤية ذلك<sup>(٣)</sup>، وكان الفرسان يجتمعون ويرقصون بخيولهم على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور «... ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب معلوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا وخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم»<sup>(٤)</sup>.

لأجل ذلك فقد العيد مدلوله الديني وانقلب إلى معرض لكل أنواع الفجور وصحبته

(١) نفسه، ص ٦٩.

السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٢، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٦٥.

\* يعتقد «على باشا مبارك» في خطته التوفيقية ج١٨، ص ٣١، أن الاحتفال بعيد الشهيد هذا هو تطور للاحتفال بعروس النيل وهى العادة التى أبطلها عمرو بن العاص فاتح مصر بأمر الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

\* ولكن من الجدير بالذكر أن نقول أن قصة عروس النيل هذه قصة مختلقة وقد دحضها الكثير من الكتاب.

(٢) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٨، السلوك، ج٢، ص ٤٥١-٤٥٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٣، السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٦٦.

(٤) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩، السيوطى، كوكب الروضة، ص ١٣١.

مظاهر الفساد والانحلال والفوضى والعريضة، إذ ترتكب المعاصى نهاراً جهاراً، وتثور الفتن وتقع بعض حوادث القتل، ويبيع من الخمر فى ذلك اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً حتى قيل أن أحد الباعة باع فى يوم واحد بائنى عشر ألف درهم فضة من الخمر، لذلك فإن فلاحى شبرا كانوا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمر فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج مما يبين مقدار ما يراق من الخمر للمتفرجين والمتزهين<sup>(١)</sup>

وقد تعرض هذا العيد للإلغاء فى سنة ٧٠٢هـ على يد الامير بيبرس الجاشنكير وكان استاداراً للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان متحكماً فى المملكة حينئذ هو والامير سلار نائب السلطنة، وكان لبيبرس دور كبير فى التعرض لبعض مظاهر الفساد والانحلال فى ذلك الوقت، فأمر بإلغاء عيد الشهيد وأن لا يرمى إصبع فى النيل ولا يعمل له عيد، وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم، وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه فى الاقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر وحاولوا إعادته فأوعدوا بيبرس بأموال عظيمة وخوفوه من عدم طلوع النيل وانكسار الخراج ولكن بيبرس صمم على رأيه فتم الغاء العيد<sup>(٢)</sup>.

وظل الاحتفال بالعيد معطلاً حتى أعاده مرة أخرى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد ست وثلاثين سنة من الغائه أى سنة ٧٣٨هـ<sup>(٣)</sup> وأرجع المؤرخون السبب فى إعادة العيد إلى أن السلطان الناصر محمد أراد أن يعرض الأميرين يلبغا اليحياوى والطنبغا الماردانى<sup>(٤)</sup> عن رغبتها فى الغياب مدة للترح للصيد فى الإسكندرية ونواحيها، ولما كان السلطان لا يطيق فراقهما لذا أمر بإعادة الاحتفال بعيد الشهيد مرة أخرى كى لا يبتعدا عن القاهرة<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩.

(٢) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩، السلوك، ج١، ص ٩٤١-٩٤٢، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص ٢٠٢-٢٠٣، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٥٤.

(٣) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩، السلوك، ج٢، ص ٤٥١.

(٤) ذكر المقرئى فى السلوك، ج٢، ص ٤٥١، أن الأميرين هما ملكتمر الحجازى ويلبغا اليحياوى، بينما ذكر فى الخطط، ج١، ص ٦٩، انهما الطنبغا الماردانى ويلبغا اليحياوى.

(٥) قال المقرئى فى شأن هذا الموضوع . . . طلب الأمير يلبغا اليحياوى والأمير الطنبغا الماردانى من السلطان أن يخرجوا إلى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامة بهما وتهتكه فى محبتهم وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفزجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضياً منه بذلك وأشيع فى الاقليم إعادة عمل عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل فى الشخاتير بغير حراريق واجتمع الناس من كل جهة =

وقد أبتل الاحتفال بالعيد نهائياً سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م أثناء سلطنة الملك الصالح بن محمد قلاوون على يد الأمير صرغتمش أحد الامراء الكبار المتحكمين فى المملكة آنذاك، فهدمت الكنيسة فى أواخر رجب وأحرق لإصبع بين يدى السلطان وزروراماده فى النهر، وكان ذلك ضمن حملات المصادرة والاضطهاد التى تعرضت لها الكنائس والديورة وكذلك الأوقاف الموقوفة عليها فى تلك السنة<sup>(١)</sup>.

## د - عيد النيروز:

عيد النيروز<sup>(٢)</sup> عيد قبطى اتخذ طابعاً قومياً فى ظل الدول الإسلامية المتعاقبة فى مصر.

وعيد النيروز هو عيد رأس السنة القبطية يحتفل به فى أول يوم من شهر توت القبطى الموافق ليوم ٢٣ اغسطس الميلادى<sup>(٣)</sup>، وأغلب الظن أن هذا العيد متوارث عن قدماء المصريين لأنه ارتبط بالنيل ارتباطاً كبيراً لأن موعد الاحتفال به يكون عادة وقت اكتمال فيضان النيل، وقد ارتبط النيروز فى العصر المملوكى بأماكن التزهة مثل البرك والخلجان وغيرها.

وكان لهذا العيد رونق كبير فى زمن الدولة الفاطمية، واستمرت مظاهره فى الدولتين التاليتين لها « الأيوبية والمملوكية»، وقد حرص المسلمون على مشاركة الأقباط فى الاحتفال بذلك العيد نظراً لما كان بينهم من مودة ولسبب آخر هو ارتباط العيد باكتمال فيضان النيل - روح المصريين جميعاً - لذا اعتبر هذا اليوم بمثابة عطلة عامة تغلق فيها الأسواق وتعطل فيها المدارس<sup>(٣)</sup>.

ومن التقاليد المتوارثة التى سادت يوم العيد واستمرت فى العصر المملوكى هى إيقاد النيران

= وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عاداتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات وتوسع الأمراء فى تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعاً خرجوا فيه عن الحد فى الكثرة البالغة وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرتهم واستمروا على ذلك ثلاثة أيام . . .

الخطط . ج٢، ص ٦٩، انظر أيضاً: السلوك، ج٢، ص ٤٥١-٤٥٢.

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٦٩-٧٠، السلوك، ج٢، ص ٤٥١-٤٥٢، ٩٢٦، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٦٥-٥٦٧.

(٢) كلمة النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد، وكان القرس يعتبرونه من أهم أعيادهم وكان يحتفلون به فى يوم الاعتدال الربيعى أى يوم ٢١ مارس، وقد عرفت شعوب كثيرة ودول عديدة عيد النيروز وكل منهم احتفل به حسب التقويم الخاص به. انظر: المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٦٨.

(٣) المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٣٦٣، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٩٣.

والتراش بالماء والخمر فى الشوارع والطرقاى وفوق صفحة النيل والبرك والخلجان

وسائر أماكن النزهة ، وكان البعض أيضاً يقفون فى الطرقاى ويتراجمون بالبيض ويتضاربون بأنواع الجلود والأخفاف والعمائم ، وكان بعض كبار القوم يفعلون مثل ذلك فى بساينهم وداخل بيوتهم<sup>(١)</sup> .

ومن التقاليد المتوارثة أيضاً والى كانت سائدة فى العصر الفاطمى واستمرت فى العصر المملوكى موكب (كرنفال) أمير النيروز الذى اىسم بالهريج والخفة ، فقد كان بعض العامة يولون عليهم شخصاً منهم يسمونه أمير النيروز له صفات جسمانية معينة فقد كان قوى الطباع ويغيرون صورته وخلقته إذ يدهن وجهه بجير أو دقيق ويجعلون له حية مستعارة من فروة أو غيرها ويضيعون على رأسه طرطوراً طويلاً من الخرص ويركبونه حماراً وهو شبه عريان يستر بعض جسمه بثوب أحمر أو اصفر ليظهره بذلك ، ويجعلون موله الجريد الأخضر وشماريخ البلح وبيده شىء يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس ، ثم يطوفون أزقة المدينة وشوارعها على البيوت والأسواق ، فيقف على باب كل فرد سواء من الأكابر أو غير الأكابر ويكتب عليه إيصالاً مرابطين أمام داره حتى يأخذوا ما فرضوه عليه وهم فى كل ذلك يحتمون بالنيروز ويقولون «ليس فيه حرج ولا تقع فيه أحكام»<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن ذلك اليوم اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من قيود حياتهم اليومية وتقاليدهم بما فى ذلك سطوة القانون فلم يكن الوالى يحكم لأحد مما ينالهم الضرر من جراء الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز<sup>(٣)</sup> .

ونظراً لما ساد مظاهر الاحتفال بهذا العيد من أخطار ومفاسد الخروج عن نطاق المعقول<sup>(٤)</sup> ، فإن بعض الحكام حاولوا إلغاء الاحتفال أو فرض العقوبات على بعض من

(١) المقرئزى، الخطط، ج١، ص ٢٦٩، السلوك، ج١، ص ١٣٦-١٣٧، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٤٩ . وقال شعراء العصر فى ذلك :

بدارى رجا للمجون ترجّلت  
فالراح مازرت عليه جيوبها  
عمائمهم عن هامهم والطيلس  
وللمساء ما دارت عليه القلائس  
مسابح من جرّ الزقاق على القفا  
وصنع انطاع جنسى ويايس

ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٣٦٤ .

(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٥٢-٥٣ . المقرئزى، الخطط، ج١، ص ٢٦٩، ٤٩٣ . ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٦٣-٣٦٤-٣٦٤ . نزهة الأئم (مخطوط)، ص ٢٢٥ .

(٣) قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١١١ .

(٤) كانت مظاهر الفساد والفجور والفوضى يشى أشكالها تصحب الاحتفال بهذا العيد فقد ذكر «ابن الحاج» «أن الخمر يشرب جهاراً والنساء يلعبن فى بيوتهن مختلطين مع الرجال والشبان فيرش بعضهم بعضاً =

يشارك في تلك المظاهر الفاسدة ، فنرى على سبيل المثال أن الامير الكبير برقوق (قبل أن بلى السلطنة) وهو المتحكم في الدولة آنذاك قد أبطل كثيراً من مظاهر الاحتفال وعاقب البعض بسبب ذلك وكان ذلك سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م ، وفي اثناء سلطنته رسم في أواخر شعبان ٧٨٧ هـ بإبطال ما كان يعمل في يوم النيروز « . . . فانكف الناس عن اللعب في القاهرة وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التزهة بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل يوم نيروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس من اللهو واللعب ما يخرجون عن حد الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعهور وقلما انقضى يوم نوروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر»<sup>(١)</sup>

ولكننا نجد السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الاحتفال بالعيد مرة أخرى ولكن مظاهر هذا الاحتفال قد تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التي توالى على مصر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، فقد ذكر « المقرئى » بهذا الخصوص « . . . لم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضى ذلك ولا من الرفة والبطر ما يوجب لهم عمله ».<sup>(٢)</sup>

وقد ارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التي كان الناس يحرصون على توفيرها في هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الاحتفال ، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت ، ومن هذه الأطعمة والحلوى الزلابية والهريسة التي كانت بعض الناس يحضرون الصانع ليبيت عندهم لتجهيزها قبل طلوع النهار ، وفي هذا العيد كان المصريون جميعاً يتهادون بهذه الحلوى كذلك جرت العادة أن تؤكل في هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخوخ والبلح . . . وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن.<sup>(٣)</sup>

---

= بالماء دون أن تستحى الجارة من الجار أو من ابن العم أو من الصهر أو من أصدقاء زوجها وإذا ضاقت بهم المنازل خرجوا إلى البرك والخلجان وغيرها من أماكن التزهة حيث يصل بهم الأمر إلى نزع ثيابهم فيصبح أكثرهم عرايا في حين يقنع المحتشم أو المحتشمة منهم بقميص رقيق . . . المدخل ، ج٢ ، ص ٥١ .

\* وقد ذكر ابن اياس مثل ذلك ، انظر : بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٣٦٤ .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٦٩ ، السلوك ، ج٣ ، ص ٣٩٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٢ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٥ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٦٩ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٤٩٣ ، ابن الحاج ، المدخل ، ج٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

## هـ- الاعياد القبطية الأخرى :

### (١) عيد الغطاس :

كان هذا الاحتفال من الاحتفالات الكبيرة زمن الدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية ، إلا أن كثيراً من مظاهر الاحتفال قد تراجعت زمن المماليك وربما ألغى الاحتفال كلية .

وكان الاحتفال يتم فى اليوم الحادى عشر من طوبة ، الموافق التاسع عشر من شهر يناير الميلادى ، وبالرغم من أن هذا العيد متصل بالعقيدة المسيحية إلا أن بعض المسلمين شاركوا فيه واتخذوه موسماً ، وكانت صفحة النيل وشاطئاه وجزيرة الروضة مسرحاً للاحتفال وبخاصة أمام المقياس حيث تنصب الخيام ويمتلئ البحر بالراكب المزينة وتشعل الشموع والقناديل وتجتمع أرباب المغانى والآلات وأرباب الملاهى من كل مكان ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى اللهو والقصف ، وكانوا يغطسون بعد العشاء قبالة المقياس ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة لا يضعف فى تلك السنة<sup>(١)</sup> .

### (٢) عيد الزيتون :

شارك المسلمون أيضاً الأقباط فى هذا العيد ويخرجون فيه إلى بئر البلسم بالمطرية ويغتسلون فيه حيث يعتقد أن العذراء مريم غسلت فيه ثياب السيد المسيح عليه السلام ،<sup>(٢)</sup>

### (٣) سبت النور :

كان الناس يخرجون فيه إلى شاطئ النيل .<sup>(٣)</sup>

## و- مولد اسماعيل الامببى :

من الاحتفالات الكبيرة التى ارتبطت بالمتنزهات (بالنيل والجزر بوجه خاص) ، الاحتفالات بمولد الشيخ اسماعيل الامببى<sup>(٤)</sup> .

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٣٦٤ ، ابن الحاج ، المدخل ، ج٢ ، ص ٥٥٩ ، المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٤ ، السيوطى ، كوكب الروضة ص ١٦٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ١ ، ص ٢١٢-٢١٣ .

(٢) عن أصل هذا العيد ، انظر : المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٦٤ ، ابن الحاج ، المدخل ، ج٢ ، ص ٥٩-٦٠ ، ابن الوردى ، خريدة العجائب ، ص ٦٤-٦٦ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج١ ، ص ٥٧ .

(٤) هو اسماعيل بن يوسف الامببى الشيخ المعتقد المشهور ، قال عنه «المقرئى» انه أحد من تشفيت به العامة إذا مسها الضر وتجأر إليه ويزعمون أن سره يجلب لهم النفع ويدفع عنهم السوء والمكروه ، عادة سوءه فى سفهاء أهل مصر ، عافانا الله منها ، كان أبوه أحد الفقهاء السطوحية وله سمعة وشهرة بناحية انبوية =

وكان مكان الاحتفال على صفحة نهر النيل فى منطقة امبابه على النيل حيث ضريح اسماعيل الامبابى<sup>(١)</sup> وما يواجهها من بولاق والجزيرة الوسطى .

وكان الشيخ اسماعيل الامبابى يحتفل فى كل عام بمولد النبى يوم ١٢ ربيع الاول<sup>(٢)</sup> ، وبعد وفاته سنة ٧٩٠هـ عمل الناس له مولداً فى كل عام يوم ١١ من شهر صفر<sup>(٣)</sup> ، وكان أهل القاهرة والجزيرة والنواحي يحتفلون به احتفالاً كبيراً إذ صار عندهم هذا الوقت من جملة التنزه ويتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون إليه أفواجاً ويستأجرون المراكب للتنزه وينصبون الخيام التى يصل عددها إلى ٥٠٠ خيمة فى الجزيرة المواجهة لبولاق وعلى شاطئ النيل عند بولاق وامبابه ، ويوقدون حراقات نفض هائلة ، وكانوا يبيتون عدة أيام وتقام الأسواق

= (امبابه) من بر الجزيرة غرب القاهرة وله بها زاوية فنشأ اسماعيل واشتغل بالفقه على مذهب الشافعى رحمه الله ، وأقبل الناس لزيارته بعد موت أبيه وتبركوا به وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فينتابه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف وقد توفى الشيخ آخر شعبان سنة تسعين وسبعمئة ودفن بزوايته .

وقال «المقريزى» عنه أيضاً «وقد اجتمعت به فلم أر فيه ما يقتضى الذم ولا المدح سوى أنه كان يمد يده لمن يأتيه حتى يقبلها وظهر لى منه انه حريص على الرياسة غفر الله له» . وقد أثنى عليه «ابن تغرى بردى» . انظر : المقريزى ، درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق محمد كمال الدين ، نشر عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢م ، ج٢ ، ص ٥٠١-٥٠٢ . ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ ، ص ٣٥٧ ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٥٧ . ابن تغرى بردى النجوم ، ج١١ ، ص ٣١٤ . ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ١٨٠ . ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٩١ .

(١) ضريح اسماعيل الامبابى عبارة عن قبة ملحقة بالركن الشرقى من مسجده ، وقد جددت وزارة الأوقاف الآن الضريح والمسجد معاً تجديدًا شاملاً والأثر الباقي القديم من المسجد عبارة عن باب بالواجهة الشمالية الشرقية وفى نفس الواجهة منذنة تعود للعصر العثمانى ، والجامع والقبة كانا فى الأصل زاوية لوالد المترجم . ويقع الجامع فى شارع المحطة حيث يطل على محطة سكك حديد امبابه بواجهته الشمالية الشرقية ، وهو على بعد ١٥٠ متراً غرب النيل ، غرب مركز وقسم شرطة امبابه بشارع النيل .

(٢) عاب المقريزى ما كان يتم يوم الاحتفال بالمولد النبوى هناك فقال « . . . وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فينتابه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف ويخرج بياض أهل مصر والقاهرة إليه وتضرب بظاهر زوايته الخيم وتعقد الأسواق وتجتمع من النسوان والشبان خلق كثير فأذكر أنه عمل المولد على عادته فى شهر ربيع الأول من سنة تسعين وسبعمئة فهرع الناس لحضور المجتمع حتى غص الفضاء بكثرة العالم وتنوعوا تلك الليلة فى الفسق لكثرة اختلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة فتواتر الخبر أنه وجد فى صبيحة تلك الليلة من جرار الخمر التى شربت بالليل فوق الخمسين فارغة ملقاة حول الزاوية فى المزارع وافتضت تلك الليلة عدة أبكار وأوقدت شموع بمال كبير فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح المولد المذكور - قاصفاً من الريح كدرت على من كان هناك ونعت فى وجوههم التراب واقلعت الخيم ولم يقدر أحد على ركوب النيل ولم يعمل بعدها مولد فإن الشيخ مات آخر شعبان ودفن بزوايته . انظر : المقريزى ، درر العقود ، ج٢ ، ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٧٥ .

بكافة البضائع للمحتفلين، وكانت الناس تخرج فى القصف والفرجة فى هذا المولد عن الحد<sup>(١)</sup>

وكان بعض السلاطين يحتفلون بهذا المولد مثل السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى<sup>(٢)</sup>.

وقد استمر الاحتفال بمولد اسماعيل الامباي فى العصر العثمانى ولا يزال للآن يسوده مظاهر احتفال كبيرة من كل عام.

### ثالثاً، ارتباط المنتزهات ببعض الامراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها

ارتبط بمنتزهات القاهرة بعض الامراض الاجتماعية التى كانت سائدة فى العصرين المملوكى والعثمانى، بل أن بعض المنتزهات كالبرك والخلجان كانت عاملاً هاماً وسبباً رئيساً فى تفشى وانتشار تلك الامراض انتشاراً كبيراً بين العامة والخاصة.

والامراض الاجتماعية التى سادت آنذاك كانت نوعين، أولهما وهو الذى ارتبط بالمنتزهات بوجه خاص هو لفساد الخلقى مثل الزنا واللواط والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش والمخدرات ومعاقرة الخمور، وثانيهما هو المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد فى قدرة الشيوخ والأولياء والتطير والتشاؤم والحسد والتعاويد وأيام السعد والنحس والاعتقاد فى الجن والتنجيم والكيمياء<sup>(٣)</sup>.

هذا فضلاً عن التصرفات الخاطئة التى سادت بين المنتزهين والتى تتنافى مع تعاليم الدين مثل المبالغة فى الاسراف ومظاهر الترف الزائدة وغير ذلك.

وكانت تلك الامراض والسلوكيات الأخلاقية الخاطئة المرتبطة بالمنتزهات متوارثة منذ زمن، وحاول بعض الحكام تقويمها، ففى العصر الفاطمى كانت الناس تتجاهر بالمنكرات من غير نكر عليهم<sup>(٤)</sup>، ولكن هناك بعض المحاولات القليلة للردع مثل ما حدث سنة ٤٠١ هـ حين منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى المراكب بالخليج وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور التى هناك والطاقت المظلة عليه<sup>(٥)</sup>.

(١) نفسه، وابن تغرى بردى، ج٤، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٨٩.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٧.

(٤) المقرئى، السلوك، ج١، ص ١١٩، ١٤٢.

(٥) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٢٤، ١٤٣.

وقال القاضي الفاضل فى متجددات حوادث سنة ٥٩٤هـ ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب فى الخليج وعن إظهار المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم قال وفى يوم الاربعاء تاسع عشر رمضان ظهر فى هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد مصر فى وقت من الأوقات ومن الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر فركب أهل الخلاعة وذو البطالة فى مراكب نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهم المزاهر يضربن بهن وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب ولا يمينعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة<sup>(١)</sup>.

ويحدثنا «ابن سعيد» الذى زار مصر زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عن الخليج فيقول «... فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشراب وذلك فى بعض الأحيان وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة ومعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبية بالليل منظر فتان، وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر، وأقول مخاطباً أحد الرؤساء وقد استدعانى للركوب فيه نهاراً :

إلا إذا يسدل الظلام  
من عالم كلهم طغام<sup>(٢)</sup>

لا تركب فى خليج مصر  
فقد علمت الذى عليه

وقد انتشرت تلك الامراض الاجتماعية والخلقية بين جميع الطبقات حكاماً ومحكومين من أهل الدنيا والدين على الرغم مما كانت عليه الدولة من أمور تبدو وكأنها تعمل للصالح والتقوى والتدين فى ذلك الوقت نظراً لما عمد اليه السلاطين والأمراء من إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة البالغة فى إحياء شعائر الدين ولكن ذلك كان مظهرأ خارجياً يخفى وراءه انحلالاً خلقياً بعيد الغور وأمراضاً متوطنة خبيثة تثير الاشمزاز والنفور<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال لم تفرد مصر عن غيرها من البلاد الاسلامية بتلك الامراض الاجتماعية بل إنها سادت فى معظم البلاد آنذاك<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ١٤٣.

(٢) ابن سعيد، الغرب، ص ٣١-٣٢، المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ١٤٤.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٥.

(٤) ابن حجر، انباء الغمر، ج ١، ص ٦٠٢، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٥.

ومن الامراض الاجتماعية التي سادت في العصرين المملوكى والعثمانى الزنا والبغاء<sup>(١)</sup> الذى كان معترفاً به من قبل الدولة، وكانت تنتشر بالمدينة وحول البرك والخلجان وعلى شاطئ النيل بشكل خاص بيوت ومواخير بكل منها ضامنة تشرف على محترفات البغاء الذى كان منتشرأ آنذاك، كما ابتلى المجتمع ايضاً فى عصر المماليك بتفشى الشذوذ الجنسى واللواط<sup>(٢)</sup>

وكان على امتداد النيل بعض الدور التي اتخذت فى أمور اللهو والفسق وأغراض منافية للآداب مثال لذلك كان على شاطئ النيل ببولاق بيت كان فى أصله لابن عز الفراهى واشتراها بعد موته تاج الدين الأزرق ناظر الجهات فعرفت «بدار الفاسقين» ورأت هذه الدار من اللهو والفسق ما يتجاوز الحد» إلى ان اشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى وعمرها جامعاً سنة ٧٣٧هـ وسمى جامع التوبة<sup>(٣)</sup>

وكان المنتزهون ينصبون الأحصاص على النيل وعلى شواطئ البرك والخلجان ويظهرون من المنكرات من الخمر ونحوها من المسكرات واختلاط النساء والرجال من غير استتار.<sup>(٤)</sup>

وعبر «المقريزى» كثيراً عن سخطه عن مجتمع المتزهات وما كان يسودها من مظاهر تنافى الخلق والدين، من ذلك ما كتبه عن الجسر الذى بين بركة الرطلى وبين الخليج الناصرى

---

(١) كانت الدعارة من المهين المعترف بها فى الدولة المملوكية لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية، فقد كان على كل من ترغب فى احتراف الدعارة ان تذهب إلى «ضامنة المغانى» والغريب فى الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترف الدعارة، ولكنها كانت مسئولة ايضاً عن حرفة نسائية أخرى مختلفة بل ومتناقضة مع هذه الحرفة إذ كانت الضامنة هى المسئولة عن المغنيات والواعظات والقارنات والتدابات فضلاً عن مسئوليتها عن بنات الليل، وقد تميزن محترفات الدعارة فى العصر المملوكى بملابس خاصة بهن، ويقول «المقريزى» فى سياق حديثه عن «سوق الشماعين» إن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهم زعيرات الشماعين لهن سيماء يعرفن بها وزى يتميزون به وهو لبس الملاءات والطرح وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم وفيهن من تحمل الحديد معهم، وكانت هناك أماكن خاصة بالغايا فى المدن والريف. وأحياناً ما كان بعض السلاطين يحارب البغاء مثل السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد والأشرف برسباى والظاهر جقمق، ولكن سرعان ما يعود الامر إلى ما كان عليه سابقاً واستمر الحال قائماً فى العصر العثمانى، انظر:

سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٧.

قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٣٩.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٨.

(٣) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ١٢، المقريزى، السلوك، ج ١، ص ٤٢٣.

(٤) المقريزى، السلوك، ج ٤، ص ٣٥٨.

« . . . وتجتمع العامة تحت مناظر الجسر وتمر بحافة الخليج للزهة فكثرت اغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر إلى اليوم وهو من أنزه فرج القاهرة لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة» (١).

وأيضاً يرسم لنا «المقريزى» صورة حية لمجتمع البركة فى العصر المملوكى حين يتحدث عن ربع المشانيق على الجسر ، وتبدو المبالغة واضحة جلية فى كلام المقريزى إلا أننا يهمنا منها مغزاه إذ يقول « . . . وكان تحته (أى ربع المشانيق) رصيف يجلس عليه الناس للفرجة وإنما سمي ربع المشانيق لأن المار تحته على الرصيف لا يشتغل بالنظر إلا إلى الطيقان لما فيها من النساء الحسان ، ومما وقع لشخص أنه رص الف دينار من أول الرصيف إلى آخره فبقيت ثمانية أيام وأتى الرجل فوجد الالف دينار ولم ينقص منها شئ لا اشتغال الناس بالنظر إلى النساء المشرفات من الطيقان» (٢).

ومن أمثلة البيوت على شواطئ الخليج الناصرى يسمى ربع الزيتى بجوار قنطرة الحاجب «وكان يشتمل على عدة مساكن ينزل بها أهل الخلاعة للقصف فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين ففى شرقه غيط الزيتى» وقد خرب أيام المقريزى وصار موضعه بركة ماء ، «وفى غربيه غيط الحاجب ببيرس «ويقول المقريزى» «وأدرسته عامراً وهو اليوم مزارع بعدما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل وعليه سياج من طين دائره ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنينه التى بأرض الطباله ومن بحرية بساتين تتصل بالبلع وكوم الريش ، وما زال هذا الربع معموراً باللذات أهلاً بكثرة المسرات إلى أن كانت سنة الغرقه ، وهى سنة ٧٥٥هـ فخربت دور كوم الريش وغيرها ووصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب فخرب ربع الزيتى وأهمل أمره حتى صار كوماً عظيماً تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب ، وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه ، وكانت العامة تقول فى هزلها : ستى اين كتنى واين رحتى واين جيتى قالت من ربع الزيتى ، ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأنهم أحلام (٣)

وكان يوجد بجوار قنطرة الموسكى ربع يسكن به بنات الخطا يفعلن الفاحشة وقد هاجم انصباى الحاجب هذا البيت فى ذى الحجة سنة ٩١٤هـ وضرب النساء اللاتى كن به وأشهرهن فى القاهرة على حمير ، وبسبب مجاورة الربع لبيت الامير نوروز وهو امير مائة مقدم الف زمن الغورى حدث نزاع ومشاجرة بين انصباى حاجب الحجاب وبينه لحمايته هو وغلمايه لهذا البيت ورفع النزاع الى الغورى فانتصف لحاجب الحجاب» (٤).

(٢) البكرى، الزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧٣.

(١) الخطط، ج٢، ص ١٦٦.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٨.

(٣) الخطط، ج٢، ص ٧٨.

وكان يوجد فى القاهرة العديد من المواخير منتشرة فى العصر العثمانى وخصوصاً الأزيكية. (١)، وظلت حول البرك الأخصاص التى تضم بنات الخطأ مثل التى كانت على بركة المجاورين (بركة الشيخ قمر) (٢).

وعن ارتباط المتزهات بالامراض الاجتماعية أيضاً ذلك الرباط الوثيق بينها وبين المخدرات وعلى رأسها الحشيش (٣) الذى عانت منه مصر والمصريون كثيراً ولا تزال تعاني من مآسيه وتبعاته.

وقد انتشرت زراعة شجرة الحشيش فى بركة الرطلى وأرض الطبالة وفشت هذه الشجرة فى عصر المماليك «وولع بها اهل الخلاعة والسخف ولوعاً كبيراً وتظاهروا بها من غير احتشام» (٤) ويرجع سبب ذلك إلى سماح الدولة آنذاك بزراعته نظراً لما قد يعود عليها من ضريبته وانتشر إلى جانب الحشيش الأفيون الذى عرفه المصريون فى العصر المملوكى واستمر سائداً. (٥)

وقد قيل فى زراعة بركة الرطلى والجينة المجاورة لها بالحشيش عدة أشعار (٦).

ويبدو أن الحشيش قد بطل زراعته فترة من البركة ولكنه زرع مرة أخرى سنة ٩١٥ هـ وقد قال ابن اياس بخصوص ذلك «وكان الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان وقد استأجر أرض بركة الرطلى فكان كل من دخل إليها يتهج بذلك لا سيما أصحاب الكتبة من الحشاشين

---

(١) أرشيف الشهر العقارى، محكمة الصالحية النجمية، ٤٩٥، حجة رقم ٥٢٠، ورقم ٥٢١، ص ٣٨٥.  
(٢) البكرى، الروضة الزهية فى ولاة مصر المعزية، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٤٠٧ تاريخ تيمور، ورقة ١٤٤.

(٣) أول من أهتم بالحشيش الصوفية وأصحاب الطرق حتى نسب إليهم فليل حشيشة الفقراء وكان مفروضاً على الحشيش فى العصر المملوكى ضريبة عالية وقد أبطل بعض السلاطين ضمانها مثل الظاهر بيبرس وأمر بتأديب من يتعاطاه ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى ما كان عليه ولم يقتصر نفسى الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة بل أفنى بعض القضاة بإباحة أكلها لذلك نظم كثير من أدباء العصر المملوكى أشعاراً الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر، انظر:

المقرئزى، الخطط، ج٢، ص ١٢٦-١٢٩، سعيد عاشور، المجتمع المصرى ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) المقرئزى، الخطط، ج٢، ص ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٠.

(٦) من ذلك قول الشاعر:

تولع فيها بالحشيش أولو العقل  
ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى =

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة  
ويبلغ رطلاً كل من رام أرضها

فجاءت إليها الناس أفواجاً يتفرجون على ذلك الحشيش وقد وضع من أهله فى محله حتى عد ذلك من النوادر الغربية وفيه يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلى حسناً  
ومند زرعوا الشدائق فى تراها  
وصارت جنة فيها عروش  
يبدو نسيمها طلع الحشيش<sup>(١)</sup>

وقد ارتبطت القنطرة الجديدة فى العصر العثمانى بتعاطى الحشيش حتى أطلق عليها فى ذلك العصر قنطرة الحشاشين<sup>(٢)</sup>.

وكان المتزهون على شواطئ النيل والخلجان والبرك وعلى صفحات مياهها وفى البساتين والحقول والضواحي يقيمون الولائم الحافلة ومجالس شرب الخمر، وكان شرب الخمر منتشرأ فى العصرين المملوكى والعثمانى بين الخاصة والعامة<sup>(٣)</sup>، وكان كثير من السلاطين وأمراء المماليك شغوفين بها حتى أن بعض أنواع منها نسب لبعض الأمراء مثل التمر بغاوى والبشتكى<sup>(٤)</sup>، بل نجد أن الملك الظاهر برقوق رتب شرب نوع منها يسمى القمز فى ميدان الرملة وجعلها من شعائر المملكة أيامه<sup>(٥)</sup>.

=ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١ ومن ذلك قوله الشهاب المنصورى :

كم بالجنينة من قتييل وحشيشة  
وهبت له الخضراء من أفعالها  
و قوله فيها أيضاً

كم بالجنينة من أصم أبكم  
أشبهه فى خلقه بابن آدم  
يحاول منه الناس رد جوابهم  
أيصفى بلا سمع أيومى بلا يد  
ورجلاه فى قيد وعيناه فى قفل  
مجازاً وفى أكل الحشيشة بالعجل  
وكيف يردالقول من مات بالقتل  
أيرنو بلا عين أيمشى بلا رجل

ابن اياس بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٦١.

وقد قال الأديب شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن على التلمسانى الشاعر المشهور الذى توفى سنة ٦٨٨ هـ فى ذم الحشيش وبيان أعراضه السيئة :

ما للحشيشة فضل عند أكلها  
صفراء فى وجهه خضراء فى فمه  
لكنه غير مصروف إلى رشده  
حمراء فى عينه سوداء فى كبده

ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، ج٧، ص ٣٨١.

(١) بدائع الزهور، ج٤، ١٥٦.

(٢) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧١.

(٣) انظر بالتفصيل: سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣١-٢٣٣، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٤) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ق ٢٣١. (٥) انظر ما سبق، ص

وكانت بركة الرطلى من المنتزهات الهامة التى ارتبطت بشرب المسكرات<sup>(١)</sup> مثلما ارتبطت بالمخدرات .

وقد ربط المؤرخون أحياناً بين أصل وديانة السكان حول المنتزهات وبين الأمراض الاجتماعية ، فعلى سبيل المثال ذكروا أنه كان يسكن حول بركة الفيل فى خط قبو الكرمانى فيما بينها وبين الخليج الافرنج والكتاب وكانوا يرتكبون من القبائح ما يليق بهم وكانوا لا يراعون للدين حرمه ، واشتهر المكان بالفسق والنجس حتى قام بشتاك بعمل جامعه وخانقاه سنة ٧٣٧هـ فبدل الإيمان بالكفر والقرآن بالفسق فاشتمرت قلوبهم لذلك ورحل من هذا الخط أكثرهم لما صاروا يسمعون الأذان وصوت القرآن<sup>(٢)</sup> .

على أن هذه الأمراض الاجتماعية وارتباطها بالمنتزهات ما كانت تُترك سدى دون حساب أو رد فعل بوازع دينى أو اخلاقى ، ويعبر لنا «ابن الحاج» عن وجهة النظر الدينية فتراه يشدد على عدم خروج النساء إلى الدور التى على البرك ، وما كان فى معناها ، إذ انها احتوت على جملة من المفاسد منها «ركوبهن إليها على الدواب فى الذهاب والعود على الصفة المتقدمة ومنها خروج بعضهن من البيوت التى هناك على شاطئ البركة متبرجات متزينات مختلطات بالرجال ، وبعضهن يغتسلن فى البركة وبعض الرجال ينظرون فى الغالب إليهن وما يفعلن أيضاً من تبرجهن إن كان فى تلك البيوت من ينظرهن من الطاقات وأبواب الريح والأسطحة وغير ذلك ، ويظهرن ما بهن من الزينة وما عليهن من حسن الثياب والحلى وغير ذلك ومزاحتهن للرجال فى الغالب»<sup>(٣)</sup> .

وكذلك ينبه «ابن الحاج» على عدم خروج النساء فى أيام الخضير «لأن ذلك الموضع محل

(١) قال الشهاب المنصورى فى ذلك :

دعوتك فانهض مسرعاً يا أخى الفضل  
فقد سل كف الخصب سيف خليجه  
وقدمت الأذواح أيدى غصونها  
وقال فى الجسر الذى بالبركة أيضاً :

لنشرب أوطالاً على بركة الرطلى  
ليضرب عنق الجذب أو هامة المحلى  
إلى النيل تستحلى ماءه وتستجلى

يدى على شرب المدامة بالرطلى  
فإن خفنا من واش تسترنا بالظل  
بكثرة أجفان على صحة العقل

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت  
وقدمت الأرام فى ضوء بدرها  
فقم تجتلبهان غزال ملط

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢ - ١٣ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) المدخل ، ج١ ، ص ٢٧٠ .

لفرجة الرجال وفسحتهم فكل من تراه هناك إلا وهو رافع رأسه إلى الطاقات والغالب عليهن الزينة والتبرج والغالب على بعض المتفرجين انهم لا يغضون أبصارهم عن المحارم، ولا يفكرون في ذلك بل يرتكبون المحرم جهاراً، فيمشون في زروع الناس قصداً ويتخذونها طريقاً ومجالس وربما عملوا فيها السماع وإنشاد الشعر الرقيق المشتمل على التغزلات التي تميل قلوب الرجال فكيف بالنساء. (١)

كذلك يشدد «ابن الحاج» في منع النساء من الدور التي على البساتين إذ أن في ذلك كشفه لهن اللهم الا أن يكون البستان لا يدخله أحد الا بأذنه فهو أحف لأنه إذا أذن في الدخول إلى البستان تحرز مما يتوقعه بخلق الطاقات والأبواب والأسطحة ويمنعهن من النظر في ذلك الوقت ويباح له أن يخرج أهله إلى البستان بشرطين وهو أن يكون البستان لا يكشف عليه أحد وأن لا يدخله مع أهله غير ذى محرم. (٢)

وكذلك يشدد «ابن الحاج» في عدم الخروج إلى النهر والى الخلجان والقناطر التي كانت متنزهات لما فيه من المفسد والاي يذهبن إلى هناك الا بعد التأكد ان موضع الفرجة لا منكر فيه ولا فتنة يتخوف وقوعها، وأما إذا انضم إلى ركوب البحر (النهر) مفسدة فالأولى المنع مثل خروجهن الى القناطر وغيرها واجتماع الرجال والنساء وما يجرى هناك مما يكل السمع عنه، فكيف برؤيته. وكذلك ما أشبهه من كسر الخليج وما يجتمع فيه من الغوغاء وما فيه اليوم من الفتنة ويؤول أمره إلى ازهاق النفوس في ذلك من الغرق أو غيره، ويذكر «ابن الحاج» كذلك انه يقع في ذلك اليوم مفسد كثيرة من قتل وسلب ونهب ولا يحاسب في ذلك اليوم أحد لما جرت به العادة من قبل. (٣)

كذلك يشدد «ابن الحاج» في خروج النساء الى شهود المحمل حيث يدور في الطرقات وكان ميدان الرميطة هو الموضع الرئيس لذلك الاحتفال لأنه كان يحدث مفسد كثيرة آنذاك. (٤)

وكان الدولة تتخذ اجراءات حاسمة تنصب على المتفرجين بالمتنزهات والمفترجات وقد ارتبط هذا الموقف المضاد بعدة عوامل أهمها، رد فعل ديني بإيعاز من رجال العلم والدين للحكام نظراً لما كان يحدث بالمتنزهات من مفسد، وقد ربطوا بين تلك المفسد وبين غضب الله الذى يتمثل فى انخفاض أو ارتفاع النيل عن الحد المناسب مما يسبب مشاكل اقتصادية خطيرة ومجاعات، وكذلك انتشار الأوبئة والطواعين.

(١) نفسه، ص ٢٧١.

(٢) نفسه.

(٣) المدخل، ج١، ص ٢٧٢.

(٤) نفسه.

بيد أننا نلاحظ ان هذه الاجراءات كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة فأذا زال الخطر عادت الأمور إلى سيرتها الاولى .

وعن رد الفعل للمتنزهات فى العصر المملوكى ما حدث سنة ٧٠٦هـ اثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية إذ منع الاميران المتحكمان فى الدولة آنذاك بيبرس وسلار مرور الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكى والتفرج فيه ، ويبرر «المقرىزى» سبب ذلك بقوله «بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى والنساء المكشوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنايز والحلى العظيمة ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ويقتل فيه جماعة عديدة ورسم الاميران المذكوان لتولى الصناعة بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلا ما كان فى غلة أو متجر أو ما ناسب ذلك فكان هذا معدوداً من حسناتهما»<sup>(١)</sup>.

وفى أخريات رجب سنة ٧٥٥هـ هدم الأمير صرغتمش كنيسة شبرا الخيام (شبرا الخيمة) التى بها اصعب الشهيد وأبطل منذ ذلك اليوم الاحتفالات بها وما كان يحدث هناك من موسم قبيح<sup>(٢)</sup>.

وعن رد الفعل أيضاً للمتنزهات ما حدث فى ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ أيام السلطان الملك المنصور على حيث رسم الأمير بركة<sup>(٣)</sup> بإيحاء من الشيخ محمد صائم الدهر بعمل سلاسل على أفواه القناطر ، فعملت على فم قنطرة فم الخور وعلى فم قنطرة الفخر بموردة الجبس وعلى قنطرة السد<sup>(٤)</sup> لتمنع دخول الشخاتير بالمتفرجين إلى الخلجان والى بركة الرطلى للفرجة ووكل لكل قنطرة من يحفظ السلاسل ويسمح بفتحها فقط لمراكب البضائع ، وقد أفاض الشعراء فى تسجيل هذا الحدث فقال بدر الدين ابن الشامية أحد صوفية الخانقاة الركنية بيبرس :

يا سادة فعلهم جميل                      وما لهم فى الورى وحاشه  
هم سلسلوا البحر لا لذنوبهم                وارسلوا للحجاز باشا

(١) الخطط، ج٢، ص ١٤٣، السلوك، ج٢، ص ٢٩.

(٢) السلوك، ج٢، ص ٩٢٦، انظر بالتفصيل ما سبق، ص ٥١٥.

(٣) الأمير بركة كان يتولى وظيفة رأس نوبة الأمراء وكان بينه وبين بروق صراع انتهى بقتله بالاسكندرية فى رجب سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م، وكان محباً للعلماء والفقراء وكان له منشآت مائة بالحجاز. انظر ترجمته بالتفصيل فى :

ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص ٣٥٢-٣٥٥.

(٤) لا يزال للآن بشارع بورسعيد (الخليج المصرى) بالسيدة زينب محطة اتوبيس تسمى السلسلة وأغلب الظن انها تسمية متوارثة على المكان حتى الآن.

اشارة بذلك إلى ارسال سودون باشا إلى الحجاز في هذه السنة لاصلاح الطرق وإجراء الماء إلى عرفه .

وقال الشهابى بن العطار :

مذ سلسلوه فصار مقفل  
فلينظر المطلق المسلسل

اطلقت دمعى على خليج  
من رام ينظر إلى عجيب

وقوله أيضاً فى المعنى :

بقنطرة المقسى فى سائر الخلق  
يقول لقد اوقفتموا الماء فى حلقى

حديث فم الخور المسلسل ماءه  
الافاعجبوا من مطلق ومسلسل

وقال البدر البشتكى :

فما ذاك من نقص يلوح لفاضل  
يقاد إلى جناتها بالسلاسل

لئن سلسلوا من مصر رأس خليجها  
وما قصدوا إلا ليصدق انه

وقوله ايضاً فى المعنى :

مصر فعنها نكبوا  
ولا صعيد طيب (١)

قد سلسلو الخلجان فى  
ماتم ماء مطلق

وفى يوم الاربعاء ٢٦ جمادى الاولى سنة ٧٨٢هـ نودى بالقاهرة ومصر ألا يلعب أحد بالماء فى النيروز وهدد من لعب فيه بالماء أن يضرب ويؤخذ ماله فامتنع الناس فيه مما كانوا يفعلونه ووجد أربعة من الناس يلعبون بالماء فى يوم النيروز فضربوا بالمقارع وشهروا (٢)

وفى يوم الجمعة ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٨٢هـ ركبت سلاسل على قنطرة المقسى بخليج فم الخور وعلى قنطرة الفخر برأس الخليج الناصرى بجوار الميدان الناصرى كما عمل فى السنة الماضية ، فامتعت المراكب التى تحمل المتفرجين وأهل الخلاعة من عبور الخليج وبركة الرطلى فانكف بذلك فساد كبير . (٣)

(١) تاريخ بن قاضى شهبه ، ص ٦ ، المقرئى ، السلوك ج٣ ، ص ٣٥٧ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ ، ص ١٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١١ ، ص ١٧٠-١٧١ ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ ،

السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٣٩٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ ، ص ٢١٧ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .

ومن أمثلة مهاجمة المنتزهات كرد فعل لتوقف النيل ما حدث سنة ٧٨٩هـ إذ لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى، فبادر نائب السلطنة الامير سيف الدين سودون بمهاجمة المنتزهين على شاطئ النيل وقبض على جماعة منهم ووبخهم ثم هاجم أماكن بيع الخمر واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة. (١)

ومثال لما يحدث من محاربة للنتزه وبعض البدع ما حدث في رمضان سنة ٧٩٣هـ، حينما أمر كمشبغا نائب الغيبة بأن لا تخرج النساء إلى التراب بالقراءة وغيرها ومنع المتفرجين في الشخاتير ومنع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام وقد أثنى شيخ الاسلام «ابن حجر العسقلاني» على سياسة الأمير كمشبغا وذكر انه «لم يتمكن أحد في مدة مباشرته الحكم في هذه الغيبة أن يتظاهر بفسق ولا فجور من هيئته». (٢)

وكان «ابن حجر العسقلاني» نصيب في محاربة التصرفات الخاطئة منها ما هو مرتبط بالمنتزهات مثل بركة الرطلى والخليج الناصرى، فقد ذكر البكرى في كلامه عن بركة الرطلى «... وكان يعمل فيها أول يوم من توت أمر غريب وهو أن يجتمع الناس في هذا اليوم ويأتى شخص على صورة قاضى وشاهدين ويجلسوا بقم البركة ويجعلوا نكاح الخليج الناصرى على بركة الرطلى فيقع في تلك الليلة من القذف واللهو والإشهار بالمنكرات ما لا يوصف ثم في صبيحة تلك الليلة تأتى جماعات بأنواع من الملامى فى المراكب ويرموا خرق بها آثار الدم ويقولوا قد أفلحت بركة الرطلى من الخليج الناصرى، ويأكل جميع من بها الزلاية فيباع فى ذلك اليوم يفوق الالف دينار زلاية، فحين سكن شيخ الإسلام «ابن حجر» رضى الله عنه على هذه البركة ورأى هذه الكائنة الشنيعة قام فى إبطالها وذلك فى أواخر المائة الثامنة» (٣).

ومن أمثلة مهاجمة المنتزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة وقت الفيضان ما حدث فى ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠ م حيث ركب بعض الأمراء وكسبوا أماكن اجتماع الناس للفرجة ونهوا عن عمل الفواحش. (٤)

ومثال لبعض المبادرات من كبار الأمراء من مهاجمة بعض المنتزهات دون سبب قوى يستدعى ذلك كتوقف النيل مثلاً ما حدث فى رابع عشرين صفر سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م حيث خرج الامير بلبغا السالمى إلى شبرا الخيام من ضواحي القاهرة وكسر بها من جرار الخمر أربع

(١) تاريخ ابن الفرات، ج٩، ص ٩.

(٢) انباء الغمر، ج١، ص ٤١٨.

(٣) البكرى، النزعة الزهية، مخطوط، ورقة ٧٣-٧٤.

(٤) ابن اباس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٥٨٩.

وأربعين الف جرة، وأراق ما فيها، وخرب بها كنيسة للنصارى وعاد فى آخره ومعه عدة أحمال من جرار الخمر فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة. ومن حينئذ تلاشى حال أهل شبرا ومنية السيرج فإن معظم أموالهم كان من عصير الخمر وبيعه. (١)

وفى سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م لم يف النيل وحدثت أزمات عظيمة عانت منها البلاد معاناة كبيرة، لذا عندما أوفى النيل فى السنة التالية بأمر السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق كسر الخليج بنفسه، وأمر بشباى الحاجب بعمل جسر على فم بركة الرطلى لمنع دخول سخاتير المتزهين للبركة « فقطع لذة الناس من الفرجة فى تلك السنة » ونسب الجسر إلى شبباى وظل معروفاً فترة باسمه. (٢)

وعن مهاجمة المتزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة ما حدث يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م إذ رسم السلطان المؤيد شيخ للأمرير سودون قراصقل حاجب الحجاب بكبس المتزهات فتوجه الأمير إلى شاطيء النيل وجزيرة الروضة فأحرق ما كان هناك من الأخصاص ومنعهم من الاجتماع لأنهم حسبما ذكر المؤرخون قد أظهروا المنكرات كالزنا واللواط واختلاط النساء بالرجال من غير استتار وشرب الخمر ونحوها من المنكرات وكانوا يتجاهرون بذلك غير مستحيين، وعندما طرقتهم الحاجب اضطربوا ونهب بعضهم بعضاً، فقدّر الله بعد ذلك وفاء النيل. (٣)

وكذلك توقفت زيادة النيل سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م فأمر السلطان برسباى بمنع المتزهين على شاطيء النيل وجزيرة الروضة من إظهار المنكرات القبيحة، وعقب ذلك حصل الوفاء. (٤)

كذلك حدث سنة ٥٨٣٢هـ أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد فأراق الخمر وأحرق الحشيش كما هاجم أماكن تجمع النساء. (٥)

وأيضاً لما قل النيل سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م وتشحطت الغلال صار الوالى بكسر جرار الخمر وحجر على الحشيش ومنع الخواطىء من عمل الفواحش. (٦)

(١) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١٠٣٠.

(٢) ابن حجر، انباء الغمر، ج٢-٣، ص ٢٨٩، ابن اياس بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٦٩٤، \* وقف وصف ابن اياس بشباى بأنه من الخوارج العال!! . انظر ترجمة شبباى فى النجوم، ج١٢، ص ٣٤٤، الضوء اللامع، ج٣، ص ١٦.

(٣) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣٥٨، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ٠٩٣، العيى، عقد الجمال، (بدون ناشر)، ص ٢٦٣، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٧.

(٤) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٧٤٨-٧٤٩.

(٥) ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ١٤٤.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٦٣.

ولما توقف النيل عن الزيادة فى شوال سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م كان رد الفعل الرسمى هو إصدار السلطان خشقدم الأمر بكف الناس عن المعاصى وردع المتجاهرين ، فكبس والى القاهرة المتنزهاة على الاخص بولاق والجزيرة الوسطى وأمسك جماعة من الرجال والنساء وأركبهم على حمير وشهرهم من بولاق إلى القاهرة ومن جملتهم أحد اولاد قاضى القضاة شمس الدين القاباتى فشق ذلك على الناس فصعد جماعة من الفقهاء إلى السلطان وشكوا الوالى ولكن السلطان انتصف لواليه وأرسل المنادين لينادوا بالأى يتوجه أحد الى المفترجات والمتنزهاة<sup>(١)</sup> وكان لبعض الوزراء دور كبير فى الحد من بعض التصرفات الخاطئة فى المتنزهاة وعلى سبيل المثال ما ذكره ابن اياس عن الشمس محمد بن البياى الذى تولى الوزارة فى سنة ٨٦٨هـ أنه سكن فى بيت الوزراء بركة الرطلى وكان متشدداً وكان يكبس البيوت على الناس فى أيام النيل فى بركة الرطلى فمن وجده يسكر إن كان رئيساً صادره وسلب نعمته وإن كان غير ذلك أدبه .<sup>(٢)</sup>

ولما توقف النيل فى الحجة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م وقلق الناس لذلك رسم السلطان للقضاة والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويدعو إلى الله بالزيادة ، كما قام نمر الوالى بمهاجمة المتنزهيين بجزيرة الروضة وشوش على المتفرجين وأحرق الخيام التى كانت هناك وضرب منهم جماعة وكان يوماً مهولاً ، ثم زاد النيل بعد ذلك وكان الوفاء فى محرم<sup>(٣)</sup> .

وفى صفر ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م لم يزد النيل فرسم السلطان للوالى أن يتوجه إلى الروضة ومصر ونادوا «ان لا يفعل منكرا ومن وجد عنده شىء من المنكر ينكل به»<sup>(٤)</sup>

وفى شهر جمادى الاولى سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م توقف النيل عن الزيادة فرسم السلطان الغورى لحاجب الحجاب ووالى القاهرة بأن يتوجهها ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة فتوجهها إلى هناك وخرقا بعض الخيام وأمر الناس بالكف عن المعاصى والفسوق<sup>(٥)</sup>

وفى سنة ٩٢٢هـ لما كان جيش مصر بقيادة السلطان الغورى على وشك المعارك مع العثمانيين بقيادة السلطان سليم الاول ، «فان الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة منع الناس من السكن بجسر بركة الرطلى وفى المسطاحى ، ومنع المراكب من الدخول فى بركة الرطلى

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ج٣ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٢) بدائع الزهور ج٢ ص ٤١٦ .

(٣) بدائع الزهور ج٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٤) ابن الصيرفى انباء الهصر ص ٥٥ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٤ ص ٢٣١ .

ولا في الخلدجان قاطبة ، وعمل جسر على خليج الزربية عند قنطرة موردة الجبس ، قال أمر الجزيرة الوسطى إلى الخراب ولم يسكن بها بيت ولا فتح بها دكان ومنع المقاصية الا ينصبوا مقصفا في الجسر ولا في الزربية ، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها لا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان ، فحصل للناس في هذه السنة غاية الإنكاد بسبب ذلك وخسروا الناس كرى بيوتهم وأشيع بسد خوخة الجسر ، فتلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمر الدوادار على أن يسمح في دخول المراكب على العادة وأن يسكن الجسر فأبى ذلك وقال إن العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان في هذه النيلية واستمر مصمما على منع ذلك ، ثم في أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى في خمس مراكب للبياعين بأن يدخلوا في البركة على العادة فدخل الحلوانى والجبان والفكهانى والعداس والسويخاتى لاغير فأقاموا أياما يسيرة فلم يجدوا من يبيعون عليه فمضوا حال سبيلهم ، واستمرت بركة الرطلى ليس فيها ديار ولا نافخ نار<sup>(١)</sup> فعند ذلك عمل فيها الشيخ بدر الدين الزيتونى مرثية لطيفة في واقعة الحال .<sup>(٢)</sup>

واستمر الولاة في العصر العثمانى يكبسون المنتزهات عقب توقف النيل عن الزيادة في أيام الفيضان ، وقد حدث مثل ذلك في شهر رجب سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م « واضطربت احوال الناس في تلك الأيام وتشحطت الغلال ، فعند ذلك رسم ملك الأمراء (خاير بك) للوالى أن ينزل ويكبس الروضة ، فنزل هو وجماعة من الأمراء العثمانيين وكبس الروضة وفك الخيام التى كانت بها ، وأشهر المناذاة هناك بأن أحد لا يتجاهر بالمعاصى ولا يجمع جموعه ولا ينصب خيمة على شاطئ البحر ومن يفعل ذلك شتى على باب داره من غير معاودة في ذلك فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصى فى الروضة فنزل فى ذلك اليوم غالب الناس من الروضة<sup>(٣)</sup>

وحدث نفس الشئ العام التالى أى فى رجب سنة ٩٢٥ حيث استمر النيل فى التوقف. فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش - ثم أن الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزبكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يقترفن الفاحشة وكان عليها مبلغ مقرر ترده فى كل شهر للوالى وكان أمرها مشهورا فرسم ملك الامراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية زوجة شخص من الناس يقال له البغيسى كانت ماشية على طريقه أنس هذه فى جمعها للبنات الخاطئات فلما قبض الوالى على أنس توجه بها إلى قصر ابن العينى فى المنشية وغرقها هناك بعد العصر واجتمع كم

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٥ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) انظر نص هذه القصيدة نقلًا عن ابن اياس فى الملحق رقم

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦٧ .

غفير من الناس للفرجة عليها وكان يوما مشهودا ففرقت على النداء والاجهار وأراح الله تعالى المسلمين منها وطهرت الارض منها<sup>(١)</sup>

وكان للوالى حسين باشا الدالى<sup>(٢)</sup> دور فى محاربة الفساد بالمتنزهاات مثل مهاجمته أخصاص الخاطيات ببركة الشيخ قمر (المجاورين)<sup>(٣)</sup>

وكان يحدث بالمقياس احتفال كبير لمدة اسبوع متواصل أيام وفاء النيل فى العصر العثمانى ولكن «احمد شلى ذكر بمناسبة كلامه عن تولية حسن باشا السلحدار محافظة مصر سابقا (٢٥ شعبان ١١١٩ إلى ٩ رمضان ١١٢١ هـ/ ٢١ نوفمبر ١٧٠٧ الى ١٢ نوفمبر ١٧٠٩ م)» وفى يوم الخميس أوفى النيل رابع مسرى، وهو آخر سنة المقياس، الذى كانوا يعملوه الينجشيرية، سبعة أيام، عند نزح الفسقية التى للمقياس، وكان جميع أهل القاهرة يهرعون وجميع الصناجق والأغوات وشيخ الاسلام والوزير وكان يصرف فيه مال كثير، وكان دائماً على كل من كان باش جاویش وكان جميع الاكابر والتجار يهادوه فى عماليل ذلك الاسبوع الذى لم يكن يوجد له نظير فى الدنيا فأبطلوه من سنة ١١٢١ هـ<sup>(٤)</sup> ولكن الجبرتى يذكر أن هذا حدث نظرا للفتن القائمة حينئذ<sup>(٥)</sup> وكان لبعض الامراء دور فى محاربة أمور الفساد والتى حوت على كثير منها المتنزهاات مثلما قام الامير على أغا سنة ١١١٥ هـ حيث هجم على «الخمامير وأماكن الخطا وغيرها» وهدم بوظة الكوم التى قصاد الشيخ الطيبى وبطل الخواطى ودخل مصر القديمة فأخرج من كان فى دار النحاس من المتسبين وسمرها وكانت أولاد البلد تعمل أنس وصفا فى الروضة والمقياس وتأتى دار النحاس وكان بها طابونة وزيات وفلاسك وكبابجى وبوظة وخمارة وخواطى حسان أبطل ذلك كله، وأخذه حسن اغا النجدلى، عمله بيت بستان عظيم وركب على أغا من مصر القديمة وفات من قصر العينى هدم عشش النخل القصير وأبطل منه الخواطى ودخل بموكبه من الناصرية<sup>(٦)</sup>.

ومن الامراء الذين كان لهم موقف مضاد للمتزهين على بك الكبير حيث يذكر «الجبرتى» أنه قام بسد بوائك قصر السيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر المظل على بركة الازيكية ومنع الناس منها لما كان يقع بها فى بعض الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين<sup>(٧)</sup>

(١) نفسه، ص ٣٠١.

(٢) تولى على مصر من ٥ رجب ١٠٤٥ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٦٣٥ م حتى جمادى الآخرة ١٠٤٧ هـ الموافق ٦

سبتمبر ١٦٣٧ م

(٣) البكرى، التزهة (مخطوط) ص ١٤٤، الروضة المأنوسة (مخطوط) ص ٣٦.

(٤) أوضح الإشارات ص ٢٢٥. (٥) عجائب الأثر ج١ ص ٦٣.

(٦) الدرمداش، الدررة المصانة ص ٦٨. (٧) عجائب الاثار ج٢ ص ٥٦٧-٥٦٨.

ويذكر لنا «الجبرتي» أيضا انه حدث يوم السبت ٢٤ من شوال سنة ١٢٠٠هـ «نادوا على النساء بالنمق من النزول في مراكب الخليج والأزبكية وبركة الرطلى» (١).

## رابعاً : المتنزهات والأدب

كانت المتنزهات عامل جذب هام، ومصدر وحي والهام، لبيدع الأدباء والشعراء أحسن الكلام، حيث انطلقت قرائحهم في مجال وصف المتنزهات وتصوير الحياة الاجتماعية بها فسمت كتاباتهم عنها فوق ما كتبوا في باقى الألوان الفنية الأدبية

وقد نظم الشعراء الأشعار العديدة فى المتنزهات باللغة الفصحى واللغة العامية، وكتب الأدباء النثر بكافة أشكاله، فقد كتبوا المقامات والرسائل وكذا المناظرات والمفاضلات بين المتنزهات بعضها البعض، وسأقدم نماذج منها فى الصفحات التالية (٢).

(١) نفسه ج١ ص ٦٣٦ .

(٢) وصف بعض النقاد الأدب فى العصرين المملوكى والعثمانى بالضعف والانحطاط والركاكة وحذى حذوهم الكثيرون، وبالرغم من أن الخوض فى هذا الموضوع بعيد عن مجال دراستنا وبحثنا إلا إننى أريد أن أشير إلى أن هذا الحكم به كثير من التجنى، فمن الخطأ تعميم هذا الحكم على أدب عصرين كبيرين من خلال دراسة سريعة غير متعمقة، لأننا وجدنا أن المخطوطات المملوكية بصفة خاصة وبعض المخطوطات العثمانية لا تزال تحوى الكثير من ألوان الأدب صادقة التعبير وجزلة اللفظ لم تر حظها من النشر .

ومن حجج أصحاب الرأى القائل بضعف الأدب هى الإسراف فى صور البديع، معنوية وحسية وتنوع ضروبه وهيئاته متناسين أن مثل هذا الشكل كان يعجب الذوق العام والخاص فى تلك الأيام، وكانوا يطربون لتلك الصور، ولهذا تنافس الأدباء والشعراء فى هذا الشكل حتى بلغوا مرتبة كبيرة فى ذلك ينم عن مقدرة أدبية كبيرة وصنعة محكمة، لأن الحياة المادية فى العصر المملوكى اتسمت بالترف والتبهرج الكبير، فمن باب أولى أن تترخرف اللغة أيضا، وهذا يتأتى عن مقدرة لا عن ضعف لذا استساغها الناس فى زمنهم ولم يتسبغه البعض فى زماننا لأن لكل عصر ظروفه ولغته وفنونه وأدابه .

كما نمج الأدباء والشعراء فى العصرين المملوكى والعثمانى فى تناول أشكال الحياة اليومية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى نثرهم وشعرهم مما يفيد فى دراسة التاريخ .

وبالرغم من وجود كم كبير من الأدب مكتوب باللغة العربية الفصحى، وآخر مكتوب باللغة الدارجة، فإننا نمجد من مميزات العصر المملوكى نمجاح الادباء فى التقريب بين اللغة الفصحى والدارجة فى بعض كتاباتهم، ونتيجة لهذا التمازج بين العامى والفصحى أن أصبح الادب قريبا إلى الشعب ملتحما بحياته وظروفه لذا نبع بين طبقات العوام أصحاب الحرف كثير من الشعراء والأدباء مثل الجزار والوراق والحمامى والصايغ والخياط والمطار والكحال .

انظر بالتفصيل : محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ص دار المعارف بمصر، أحمد صادق

جمال، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م .

محمد سيد كيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، دار الفرجانى، القاهرة، ١٩٨٤ .

من أمثال المقامات التي قيلت في المنتزهات في العصر المملوكي اقتطف فقرات من مقامة الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر القادري التي سماها «عرف الروضة الذكية في وصف محاسن الأزبكية»<sup>(١)</sup>، والتي كتبها عقب عمران أزبك للأزبكية، ومنها وصف الجامع ووصفا طريفا قال فيه: «... أعمدته كشموع كبيرة ناصعة البياض، ورخامه المديح قد استعار من البستان خضرة رياضه، ومن الليل والنهار لون سواده وبياضه، وكان شرفاته المرتفعات حسان نساء في أزهرن متربعات، وكأنه في الليل البدر غير محتجب، سراقق من الفضة قد ضرب...»<sup>(٢)</sup>

ثم أخذ في وصف منشآت الأمير أزبك حول البركة بأسلوب بليغ تحايل فيه ببلاغته على وصف تفاصيل العمارة الاسلامية أبلغ وصف<sup>(٣)</sup>، فمن وصفه لقاعات القمر ورخامها قال «وافتخرت على البقاع بقاعاتها التي هي كجنيات تجرى من تحتها الأنهار، تطرد بها آناء الليل وأطراف النهار، من كل شاذروان تقربه العينان، إذا انكسر ماؤه وانسكب، تسلسل كالفضة على أرض من ذهب، وقام بعد تكسر يجرى في أخدود، يسر الوارد عند الورود، ينتهي من تلك الأحاديث إلى فساقى، تسعى لسقيها عند الورود ألف ساقى، وتلك القاعات بها رخام ملون، كأنه من بديع الزهر قد تكون، فكان بستانها أهدى لرخامها من رياضه حللا، محكمة النسيج لا ترى خلالها خللا.

وكل مبيت يفضح الشمس والأقمار بقمرياته، ويدهش العيون إذا نظرت إليه بحسن دهاناته، إذا قابلت قمرياته الشمس إذا بزغت والقمر إذا طلع، يظنان أن قوس السحاب وقع عليها لجة إياها وقطع، يقابلها الدهانات البعلبكية، التي تدهش العيون برؤيتها السنية، وشى كالنقش الأخضر على ترائب الأتراب الحسان، إذا رآها الانسان أذكرته رياض الجنان، فبهجة الأنس عن مناظرها غير غائبة، وجسم جمال النقش يكاد أن يتحرك بروح حسنة وعروقه اللاعبة<sup>(٤)</sup>، وتظن رخامها الملون في حسنه من زهور الرياض، وأسوده في أبيضه كسواد العيون منها في البياض، وإذا قرأ القارئ الذي من سجيته الطرب، تكاد سقف تلك القاعات تنقطه من مكارم منشيها بالذهب».

ثم وصف الحمامات بقوله: «... يالها من حمامات يستوقف الناظر حسن رخامها

(١) نقل هذه المقامة «ابن اياس» في كتابه «نزهة الأم في العجائب والحكم»، (مخطوط)، ص ٢٤٦-٢٥٥.

(٢) ابن اياس، نزهة الأم (مخطوط)، ص ٢٤٨.

(٣) هنا تعبير المرحوم «حسن عبدالوهاب» في مقاله «تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها»، ص ٤٠.

(٤) استعمل الأديب الألفاظ الوثائقية لوصف الآثار مثل الدهانات البعلبكية والقمريات والعروق اللاعبة مما يدل على شيوع هذه المصطلحات في لغة الكتابة.

الوسيم ، ويستوقف الأسماع صوت مائها الرخيم ، وتحير في حسن بهجتها النظار ، إذا أشرفت أقمار جاماتها بالنهار . . . » .

ثم وصف البركة بقوله : «إنها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر ، ترتاح إليها النفوس وتقربها النواظر ، فهي بركة أنيقة المنظر ، صافية المخبر ، أرضها كالعنبر ، وعرفها كالمسك الأذفر» .<sup>(١)</sup>

ثم وصف الحدائق حولها وما يتم به من حفلات تطلق فيها الألعاب النارية بقوله : «كأنى أراها حين سعى الناس إليها من كل مكان في ليلة أحرقت مرده الهموم ، بشهب من نيران النفط كالنجوم الرجوم ، فبينما الناس في لهو وفرح ، وبسط من الأنس ومرح ، إذ أطلع فلك السماء الماء فلماً تحمل أشجاراً من نار ، يقذف النفط منها أنواعاً من الأزهار ، من مفضض ومذهب ومدبج من ألوان اللهب ، وأسهم تنسب مع إصابتها إلى الخطأ ، وضوء شمس يكشف عن وجه الظلام الغطا ، في ليلة ينجاب عن وجهها الظلام ، وشاهد الناس فيها العجب ، لما اصططح الماء مع اللهب ، وطار على وجه الماء فراس من ذهب ، ودارت بأكف اللاعبين دواليب من نار ، من غير رياش تدور على قلب ولا زنار ، فيالها من نار أثلجت الخواطر ، وأقرت برؤيتها من الحاضرين كل ناظر» .<sup>(٢)</sup>

ثم استطرده في وصف البركة فقال :

« . . . زادت على بركة الرطلى قناطير بقناطرها ، وزهت عليها حسنا للناظرين بمنظرها ، فهي في الارض لكثرة الخلق كالسما ذات الحُبك ، وإذا كررت النظر في منظرها العجيب يعجبك ، فيالها من بركة ماؤها بتجعيد الرياح كالمبرد يجلو عن القلوب الصدا ، ويرد العيون مد مائها الأسيل فلا يزال بالعيون مورداً ، إذا افتخرت السماء بنجومها وسماكها افتخرت سماء مائها ، بكواكب اسماكها ، وان افتخرت بشموسها وبدورها ، افتخرت بشموس حسانها وبدورها ، فهي في زمن النيل بمنظرها كالسما ذات البروج ، وفي زمن الخريف ذات شطوط ومروج ، فإذا نضب عنها الماء خرج من سجن طينها من زغب الحب ما كان من المحابيس ، وبرزت في حلل من زهر الربيع كأذئاب الطواويس ، يالها من بركة إذا رآها الناظر أعلن بالتهليل والتكبير ودعا بطول البقاء لمنشأها الأمير الكبير» .<sup>(٣)</sup>

وختم هذا الوصف بما كانت عليه حوانيت التجارة حولها من رواج يشبه رواجها الحالي .

(١) ابن اياس ، نزهة الأم ، ص ٢٥٢ .

(٢) ابن اياس ، (مخطوط) ، ص ٢٥٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٣ .

ومن المقامات التي قبلت في المنتزهات المقامة التي كتبها الإمام السيوطي وسماها «بلبل الروضة» وقد تعرض فيها لحاسنها وما ضمته من آثار، ومقارنتها بالمنتزهات الأخرى ومنها تقتطف تلك الفقرات<sup>(١)</sup> :

«... روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن، وأطيار ترثم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن، روضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة، روضة هي مجمع البحرين ومختار يقابل مجمع البدرين، ومنهاج يسير فيها كل في فلك من النوايع ويدور، فهي على كل الاحوال ذات النورين، ومطلع البدرين، ومنازل الفرقدن، لم يقر غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسم قسيم، ولم تتقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم، فلا غرو إن كانت ملكة المنتزهات، فإنها أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم»<sup>(٢)</sup>.

«... إن فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت أنا في ملازمة النيل الفردة البزة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى أعرضت عن القيل والقال، وقالت إنى يقاس بخرطومى المشتهى زلومة النيل، وإن قال التاج أنا المرفوع على الرؤوس قالت أنا عروسة الحسن، لا سهما في عرس النيل، والتاج في خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه لقد تعددت منا الوجوه والمناظر قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر»<sup>(٣)</sup>.

«كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس في وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طيلسان أو سرير ملك نصب في ميدان، أو قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد ومقر صوفية وزهاد. وكم سكن بها من ملوك وخلفاء، وأمراء وكتاب ورؤساء، ووزراء وقراء وأولياء، وقراء وأغنياء، وأذكباء، وذوى هيات وأتقياء، وتلاوة قرآن، وتدريس وأفنان، وشعائر وأذان، ونغمات والحان، وقضاة أوطار، وضربات اوتار»<sup>(٤)</sup>.

. يؤكل فيها حيوان البر زكيا وصيد البحر طريا، وثمر الأشجار جنيا، ويشرب فيها الماء من شوائب الاقذار عريا، ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرىء من الأسقام عليلا، ويشفى

(١) نشر هذه المقامة د. نبيل عبدالعزيز في كتيب صغير بعنوان «بلبل الروضة»، مكتبة الهمداني، ص ٢٣-٤٤، وهي أيضا ضمن كتاب كوكب الروضة للسيوطي.

(٢) السيوطي، بلبل الروضة، ص ٢٤-٢٧.

(٣) نفس المصدر، من ص ٢٧-٢٨.

(٤) نفس المصدر، من ص ٢٩-٣٢.

من الأورام غليلا، ساكنها قد وفي السموم والحرور، وأعفى من شعث الكيمان والبرور. ويحيط بأرجائها النيل وما أدراك ما النيل، سيد الانهار والمسخر له جميع مياه الأرض تمده في الزيادة كما ورد في الآثار؛ إن أصل منبعه من الجنة، وسمى في القرآن باسمه دون غيره، ونطقت به السنة، وهو في الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل، وهو الذي كاتبه «عمر بن الخطاب» لما حمل أهل مصر الاصر، فكتب له بطاقة صدرها «من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر». (١)

« . . . وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد، طالعه في برج السنبله والحوت للمشتري سعيد، وهو يوم الزينة، وما أدارك ما يوم الزينة، يوم يحشر له الناس، ويحج به الى المقياس، وتطيب من تخليقه الأنفاس، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفي الحقيقة خلعة رضا ولباس، وتكمد الحساد، وتجتمع الاضداد، فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل، ويركب إليه الملك والجنود، وتعد له الألوية والبنود، ويكون من ماءه ولونه المحمر الورود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله في كل سنة أجل معدود». (٢)

وكانت المفاخرات والمناظرات بين المترهات لونا أدبيا شيقا لما حوته من صور بيانيه بديعة، إلي جانب ما حوته من معلومات تفيد في دراسة الحياة الاجتماعية التاريخية ومن أمثلة ذلك تلك المفاخرة بين بركة الرطلى والجسر عليها. (٣)، ومنها أيضاً مفاخرة بين جزيرة الروضة ومصر وهي من انشاء الشريف صلاح الدين محمد بن ابى بكر، ونقطتف منها بعض الفقرات. (٤)

« . . . فقالت مضر بسم الله تبركا لفظا ومعني، أنا القديمة مثنا، والذي اذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جئت محاسنى مثنى مثنى، لى سمعة فى الجاهلية والاسلام، وإذا حل فى حال دام الأمن بسلام، وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير، وإنى الصدر، وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر، فخري على البلاد، كفخر العلماء على العباد، وذكرى فى كل ناد، بين حاضر وباد، أنا نزهة النفوس، ومطلع البدور والشموس، وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس، وحبذا بساتينى المفتنة بكل عصر طابيل ونيلى الجارى كالسكر المذاب الناييل، وأحسن بقول القائل:

(١) السيوطى، بلبل الروضة، ص ٣٦-٣٩.

(٢) نفسه، ص ٤١-٤٤.

(٣) انظر تلك المفاخرة كاملة فى الملحق الأول.

(٤) نشر السيوطى المقامة كلها فى كتابه كوكب الروضة (مخطوط) ص ١٦٦-١٦٩.

ارض مصر فتلك أرض  
من كل فن بها فنون  
ونيلها العذب ذاك بحر  
ما نظرت مثله العيون

فقال الروضة: « الحمد لله علي هذه المسرة ثم الحمد لله الذي أظهر محاسني، بشهادة الضرة وأقر كل لسان ممن رأني بأني لانسراح القلوب مقرة، أنا للجموع راقمة، وبأنواع الفرح والخير قانصة، ولموج الحرت الزى مثل الجبال غايصة، أزهارى بطيها تفوح، وبألوانها المعجبة تتبهرج وتلوح، وأغصاني تتمايل طربا إذا فآخر ضدضده، أنا العروس بالتحقيق فى زمن الربيع، أنا زهرى الباسم الناسم، وتلوينه البديع، أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعدى لاسيما فى أيام النيل حصناً منيعاً<sup>(١)</sup> .

... فقالت مصر للروضة: «الآن حصحص الحق ببيانه، وظهر كتمانها أسأت بهذه المقابلة، وكيف لك بالمطاوله، أنا فضلى مذكور، وصيتى غير منكور، ودليلى القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور، ذكرت فى أربع وعشرين موضعاً من التنزيل، منها أربعة صريحة وبقاها بتأويل، ووردت الأخبار بسندها فى بصحة الأقاويل، شهد لإجماع بفضلى، ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق كعبة للمصلى، وأنا مأرى التنزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى، وكم للنزعة والتعبد عندى من زاوية، وكم فقير بالبحر من زاوية، لطفت أبنائى فوصفوا بالرقه والصفاء، وتمازجوا بحلاواتهم حب الوفا، فقليل عنهم ما ليس فيه خفا:

حبذا القسطاط من والده  
جنبت أولادها در الجفا  
والنيل يأتي إليها كدرا  
فإذا مزج أهلها صفا

فقال الروضة: «تبرهن البرهان، وبان البيان، قال الله عز وجل «فى روضة تجبرون»، وقال تعالى «فى روضات الجنات لهم من يشاءون»، وحسبى بهذا دليلاً إذ كثر المكثرون وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان، وهو من أقوى الدلائل على تفخيم الشأن، فإذا شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس، وعرفت على الحقيقة بالوفا دونك بالآيناس، واشتهر افتخارى يوم الزينة على العاصى وغيره من الناس، وإن كان لك جامع فلى الزيادة، وأثار جميلة، فكم الأصابع زيادة، أباد أنا بها عيد وهى عادة<sup>(٢)</sup> .

وقالت مصر «أنا مدينة الكسب والمعاش وللمقيم بى إقامة حال معاش، ومعدن المتاجر والمتاجر وذوى الرياش أنا مستودع نفائس الأموال وحواصل أربع من رباعى للأحبة مربع، ومخلص بالمضطر فى بيوتى عند كل مطلع، وفى كل ناحية منى للمنتزه مرتع، قالت الروضة

(١) السيوطى، كوكب الروضة، ص ١٦٧ . (٢) السيوطى، كوكب الروضة، ص ١٦٨ .

ان كان بك غلال فكم بك من مغلول، وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول»<sup>(١)</sup>.

والمخطوطات تحتفظ بأمثلة عديدة من تلك المناظرات والمفاخرات كما حرص الأدباء على ذكر المنتزهات في أدب المراسلات في العصر المملوكي من أمثلة ذلك ما كتبه المؤرخ بن حبيب (توفي ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) في مراسلة إلى بعض أصحابه بحلب ذكر فيها «وأما ديار مصر فإنها نعم الديار، وهي كما قيل شرك النفوس وعقلة الأبصار، تولد حيرة العقول بحسن حورها وولدانها، وتقرط الأسماع بنغمات أطيار قرطها وكتانها، وتجدد الأفراح بمقطعات نيلها، وتتقرب بسائر التزه إلى قلب نزيلها، ما أحسن جيزتها التي جازت الحد سيوف لهوها اللماعة، وأعطر روضتها التي لم يزل منصوباً بها منبر الخلاعة. يحلو لطرف المنتزه بها اجتلاء جلاها، ويجود ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مشتهاها، وأما البحر فحدث ولا حرج، واركب فيه باسم الله تظفر بكل مطلوب من الفرج، كم لأصابع مقياسه على الخلق من الأيادي. وكم لخلجانه من منهل يرده الرائح والغادي، وكم له من منظره عالية تقول هل من مناظر، وزربية عيون شبابيكها ناظرة إلى كل روض ناظر، وعلى الجملة فإنه بحر تعجز عن حصر محاسنه ألسن الأقلام...»<sup>(٢)</sup>.

ومن الألوان الأدبية التي كانت مرتبطة بوفاء النيل رسائل البشارة التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء وهذه البشارة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك «وقد حرص حكام مصر من قديم الزمان أن يكتبوا البشارة بوفاء النيل إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وازهاراً للسور بوفائه الذي يترتب عليه الخصب الذي يؤدي إلى العمارة وقوام المملكة»<sup>(٣)</sup>.

ونالت جزيرة الروضة حظاً موفوراً في سجلات الأدب والأدباء في العصر المملوكي بصفة خاصة بصفحتها عروس المنتزهات والمفترجات.

ونقتطف بعضاً من الأشعار التي قيلت فيها مثل قول الشاعر المتصوف محمد بن وفا الذي كان يسكن فيها فأضفى عليها من روحانياته وصفيته جملة معاني، فقال:

رأيت رياض القدس في روضة الرضا      على نيل مصر بين تلك المناظر  
مناظرها للناظرين مشارق      وفيها وجوه كالبدر البوادر<sup>(٤)</sup>

(١) نفس المصدر، ص ١٦٩. (٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص ٢٧١.

(٣) الفلقشندی، صبح الاعشى، ج٨، ص ٣٢٨-٣٣٠، قاسم عبده قاسم، النيل، ص ١١٣.

\* وانظر نماذج من البشارة في المحلق رقم ٣.

(٤) محمود رزق سليم، النيل في عصر الماليك، ص ١٤١.

ويزهر البدر البشتكى بمصر بسبب متزهاتها فيقول :

انظر إلى مقياس مصر وغن لى  
وافخر بمصر على البلاد فنيهلها  
وتخلخلت منه الغصون ومد علا  
لله فى أفق الجزيرة ملعب  
حيث الصبا تصبى اللبيب لأنها  
من روضة المعشوق فى عشاق  
يقضى على الأوصاف باستغراق  
دار دوائره على الأسواق  
كانت نجوم السعد فيه رفاقى  
تملى عليه مصارع العشاق<sup>(١)</sup>

ورسم لنا الشاعر ابن أبى حجلة<sup>(٢)</sup> صورة لجزيرة الروضة وقد علت سماءها غيوم  
والسفن تتسابق حولها فيقول :

أو ما ترى غيم السماء كأنه  
والروضة الفيحاء باكرها الندى  
والسفن تبدو كالعرائس حولها  
ندُّ يلوح لنا بأفق المجلس  
وكسا خمائلها رياض السندس  
قد أقبلت مثل الجوارى الكنس<sup>(٣)</sup>

ويرسم لنا الشاعر أيضا صورة لجزيرة الروضة مفعمة بمجالس الطرب والموسيقى وسط  
طبيعة ساحرة من الأزهار يحيط بها النيل فيقول :

وكاننا فى روضة المقاس والـ  
وشدت بلحن معرب فاعجب لها  
فالطلُّ درُّ قد تنائر عقده  
والبحر قد رقت حواشى برده  
ورقاء قد غنت على العيدان  
أر أيت أعجم معرب الأحنان  
والزهر منه مرصع التيجان  
والريح تصقله بغير توان<sup>(٤)</sup>

ويصور لنا الشاعر عز الدين الموصلى جزيرة الروضة فى صورة جمالية متعددة الرؤى  
فقال :

- 
- (١) محمود رزق سليم، النيل فى عصر الماليك، ص ١٤١ .  
(٢) ابن حجلة هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الواحد المغربى (٧٢٥-٧٧٦هـ)، محدث،  
فقيه، نحوى، أديب. انظر: الزركلى، الاعلام، ج١، ص ٢٥٥ .  
(٣) محمود رزق سليم، النيل فى عصر الماليك، ص ١٤٢ .  
(٤) نفسه، ص ١٤٣ .

روضة نقشتها للحميا إبر  
 مثل السوار لها سرو احاط بها  
 أو كالحلاخيل للأرواح دار على  
 تحت الرياض غياض دبجت فبدت  
 أغصانها الند والأوراق سندسه  
 والزهر بين شعاع الشمس تحسبه  
 والظل ثوب إذا مر النسيم به  
 ونهرها زائد بالخصب يؤذنا

فأصبحت بين تطريز وتزهير  
 من سلسل هي منه ذات تسوير  
 سوق لها مطلقا في زى مأسور  
 ألوانها ذات تشهير وتشذير  
 والزهر عرق ياقوتًا ببلور  
 دراهمًا نثرت بين الدنانير  
 فالروض ما بين مهتوك ومستور  
 كصارم في سبيل الله مشهور (١)

ومما قيل في مصر وبه ذكر الروضة، قول الشاعر ناصر الدين أبو بكر العيذراوى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما  
 فأولادها الولدان من نسل آدم  
 هي الجنة العليا لمن يتفكر  
 وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٢)

ومن المقطعات الأدبية في الروضة والمقياس والمشتهى، قال ابن الصايغ الحنفى (٣) :

وليلة مرت بنا حلوة  
 لا يبلغ الواصف في وصفها  
 ان رمت تشبيها بها عبتها  
 حدا ولا يلقي لها منتهى  
 ونلت من خرطومته المشتهى (٤)

ومن المقطعات الأدبية في جزيرة الروضة والمقياس، قال الشيخ برهان الدين القيراطى (٥)،  
 وقد جمع متزهات الروضة مثل المعشوق والمشتهى والمنتهى :

(١) محمود رزق سليم، النيل في عصر الماليك، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) نفسه. وقد ذكر ابن إياس هذين البيتين بصيغة أخرى هي :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما  
 فأولادها الولدان والخور عينها  
 هي جنة الدنيا لم يتبصر  
 وروضتها المقياس والنيل كوثر

انظر، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥١.

(٣) ابن الصايغ، هو موفق الدين أبو البقاء يعيش بن على، المتوفى سنة ٦٤٣هـ، شهد أدباء دمشق له برسوخ  
 القدم في فنون الأدب. انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٧، الحاشية.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٤.

(٥) هو عبدالله محمد بن عسكر. أبو محمد (المتوفى سنة ٧٣٩هـ) سمع من الديمياطى وابن دقيق العيد وقرأ  
 الأصول على الباجى والجزرى والعربية على أبى حيان إلى نظم وسط انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة،  
 ص ٢٠٨ (الحاشية).

وحسنا المعشوق والمشتهى  
وجنة فيها الذى يشتهى

وروضة أضحى لها المنتهى  
وهى لمن قد حلها روضة

وقال أيضا :

مشتهى حسنه هو المعشوق  
ووسيم يصبو إليه المشوق

رشق القلب بالسهم رشيق  
هو فى مصر روضة ومحيا

وقال الشهاب المنصورى :

بحبها قلب هذا النيل مشغول  
وريقها من زلال الماء معسول

كأنما الروضة الغناء غانية  
أعطافها من غصون الدوح مائسة

وقال أيضا :

يا خجلة البدر وظبى الصريم  
تزهو بوجه قمرى وسيم<sup>(١)</sup>

اسفر وجهها ورنما مقله  
فى مشتهى وجنته روضة

وقال الشيخ كمال الدين جعفر الأدفوى :

يطيب لمن أقام بها المقام  
وذو الوجهين مذموم يلام

لروضة مصر حسن لا يسامى  
لها وجهان ممدوحان حسنا

وقال على بن رستم المعروف بابن الساعاتى :

واسمع من بدائع تشبيهى وتمثلى  
هناك أشبه شىء بالسروايل  
نسيمها بين تفريك وتعديل

انظر إلى روضة الغناء والنيل  
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقا  
والريح تطويه أحيانا وينشره

وقال :

هم بغية خاطر والمشتهى  
وشيخهم ذاك له المنتهى<sup>(٢)</sup>

فى روضة المقياس صوفية  
لهم فى البحر أياد علت

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٥.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٢٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٤.

وللشهاب المنصوري في المقياس :

ولا ناس في الامصار أطرف من ناس  
فلا تقطعوها في إلا بمقياس

تقول لنا مصر أنا خير موطن  
فإن تك أوقات السرور قصيرة

وللبدر البشتكى :

في روضة المعشوق في عشاق  
لسماع نوح الورق في الأوراق

انظر إلى مقياس مصر وغن لى  
وانظر إلى الأغصان كيف تمايلت

وقال آخر :

بها أيا من ضيعوا حرمتى  
ويسطة المقياس في قبضتى

تقول مصر حين قاسوا القرى  
بأى شىء قستمونى به

وللشهاب بن صالح :

يا مشتهاى وقاتلى من صدّه  
فاضرب على قول العذول وعدّه

إن جئت بحر النيل عدى روضة  
ولئن أتتكَ من العذول ملامة

ومما قيل في القوس الذى كان بالروضة والذى تخلف من القلعة الصالحية وهو من  
المتفرجات القديمة ، قال فيه شمس الدين النواجى :

تفتخر قط باسمها  
منه راحت بسهمها (١)

مصر قالت دمشق لا  
لورأت قوس روضتى

ومن الاشعار التى قيلت في البرك في العصر المملوكى .

كتب الصلاح الصفدى إلى بعض أصحابه يتشوق لبركة الفيل :

وددت لو أشتريه فيك بالعمر  
ترد قول المعرى عند ذى النظر  
وتكشف الشهب ما فيها من الدرر  
وليس للأفق يا هذا سوى قمر

يا بركة الفيل كم لى فيك من وطر  
أفديك من بقعة فى الأرض أحسبها  
تطاول الأفق فى حسن وتفضله  
يطل من كل دار حولها قمر

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٥ .

يشف عن نيرات الأنجم الزهر  
تعلم اللطف منهم نسمة السحر  
فراق أزرق فى الآصال والبكر  
فما تلفظ إلا جاء بالدر  
يحتاج فيه إلى الألحان الوتر  
سعيًا على الرأس أو سعيًا على الشعر  
فليت شعرى هل يدرون ما خبرى (١)

وفى بركة الرطلى يقول الشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفى :

مدهشة للعين والعقل  
كل بحار الأرض بالرطل (٢)

واشرح محاسنها بأبيها الحاكى  
كأنها جنة حفت بأملك

من البذور وأصناف الملاح زمر  
فهذه فُلك دارت بألف قمر

لنشرب أرتالا على بركة الرطلى  
ليضرب عنق الجذب أو هامة المحلى  
إلى النيل تستحلى لماء وتستجلى (٣)

والماء مثل السما لونا وباطنه  
قطعت فيها لبالى الأنس مع فئة  
قد أدبوا الدهر حتى لان جانبه  
من كل من فاق فى فضل وفى أدب  
إذا سفاك وعاطاك الحديث فما  
لو ساعدتنى الليالى زرت ساحتها  
أخبار سكانها فى الظن طيبة

فى أرض طبالتنا ببركة  
ترجح فى ميزان عقلى على  
وقيل فيها :

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجا  
الماء والبننت والخور الحسان بها

وقال آخر :

قد قلت فى بركة الرطلى إذ جمعت  
إن كان فى الفلك الأعلى يرى قمر

وقال الشهاب المنصورى :

دعوتك فانهض مسرعا يا أخا الفضل  
فقد سل كف الخصب سيف خليجه  
وقد مدت الأدواح أيدي غصونها

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٦٠.

(٣) نفسه.

وقال على بن سودون مواليا :

لأن ما فيك لا غولة ولا تمساح  
خلع عذارو وصار فيك خليج مشكاح

يا بركة الرطلى ليش روحى لكى ترتاح  
كم من فتى استحى اليكى راح

وقال المنصورى فى الجسر الذى بالبركة :

يداي على شرب المدامة بالرطلى  
فإن خفن من واش تسترن بالظلم  
بكسرة أجفان على صحة العقل

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت  
وقد سنح الأرام فى ضوء بدرها  
فقم نجتليها من غزال مسلط

وقال المنصورى فى الجنينة التى بجوار بركة الرطلى :

لا يستفيق ولا ينفخ الصور  
أذان أطروش وعين ضرير

كم بالجنينة من قتيل حشيشة  
وهبت له الخضراء من أفعالها

وقال فيها أيضا :

ورجلاه فى قيد وعيناه فى قفل  
مجازا وفى أكل الحشيشة بالعجل  
وكيف برد القول من مات بالقتل  
أيرنو بلا عين، أيمشى بلا رجل

كم بالجنينة من أصم أبكم  
أشبهه فى خلقه بابن آدم  
يحاول منه الناس رد جوابهم  
أيصفى بلا سمع أيومى بلا يد

وقيل :

تولع بالحشيش أولو العقل  
ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى (١)

بمصر لأهل اللهو والتهيه بركة  
ويبلغ رطلا كل من رام أرضها

وكان من مفترجات القاهرة قديما وكان يعرف بالتكة، وخليج الذكر، وكان مكان الأزيكية  
الآن، وفيه يقول العمار :

وفزت منها ببلوغ الوطر  
وتحتها تلقى خليج الذكر

يا طالب التكة نلت المنى  
فنطرة من فوقها تكة

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١.

وفى بركة الأزبكية ينشد الشيخ شمس الدين القادري :

تزهو على سائر الخلجان والبرك  
فأصبح الحسن فيها غير مشترك  
تضىء فى حندس الديجور والحلك  
مثل الشمس تُرى فى دارة الفلك  
صادت طيور قلوب الناس بالشرك<sup>(١)</sup>

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت  
تجمع الحسن فيها من معادنه  
حفت بدارتها الأقمار فهى بهم  
مرأة حسن فربات الجمال بها  
وعندما نصبت أشراك بهجتها

وقال المنصوري فى جزيرة أروى والزرية :

ما بين أملاق وبين جصور  
تسبيك بالولدان أو بالخور

قم سيدى نسعى إلى فرج زهت  
ونرى زرابيا بها مبثوثة

وقال آخر :

أرى خلقا كخيل للطراد  
وأدعو بالسلامة فى المعاد

إذا رحت بالجزيرة كى اعدى  
فاذكر يوم حشر الخلق طرا

وقال ابن أبى حجلة :

ويقده العسال كالولهان  
شبهتها فى الشكل بالمران

أمسيت فى قصب الجزيرة مغرما  
عيدانه لولا حلاوة ذوقها

ولابن قادوس فى الجزيرة :

كأحداق تغازل والمغازل  
وأنبئت المنازل فى المنازل<sup>(٢)</sup>

أرى سرح الجزيرة من بعيده  
كأن مجرة الجوزاء خُطت

وقيل فى موردة الحلفا :

يبين للمحبوب حالى وما يخفى  
من الورود وهى الآن موردة الحلفا

بدا الشعر فى الخد الذى كان يشتهى  
وقد كانت الوجنات بالأمس روضة

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٨.

وقيل فى جزيرة الطمية لابن مكاس :

بأبى الطمية جنة قد زخرفت  
لى فى ربي قيناتها الرتب العلى  
حور وولدان بها ورحيق  
ولها بقلبى هزة وعلوق

وقال الشيخ إبراهيم المعمار فى جزيرة حليلة :

جزيرة البحر هامت  
لما حوت حسن معنى  
فكم يخوضون فيها  
ولم تنزل ذى احتمال  
بها عقول سليمة  
وبسطة مستقيمة  
وكم مشوا بنميمة  
ماتلك إلا حليلة (١)

وقيل فى بولاق، لبعضهم زجل :

فى جزيرة بولاق رأينا عجب  
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح  
أسد ساروا معهم ظبا شاردين  
أذهلونا خضنا مع الخائضين (٢)

وقال الشيخ شمس الدين النواجى فى منية السيرج :

أركب النيل ما استعطت ففيه  
كم تفرجت حين سافرت فيه  
راحة الفتى وغاية بغيه  
فى بلاد وكم ظفرت بمنيه (٣)

وقيل فى كوم الريش، وهى من المفترجات القديمة :

انظر إلى كوم ريش قد غدا نزاها  
به بحار لآلى قد حوت قضبا  
ولا تقل كوم ريش ماله ثمن  
فإن بالريش حقا يحسن الذهب

وقيل فى قناطر الأوز، وبرك البشنين :

فى مصر تُعزى للأوز قناطر  
وحكى بها البشنين شخصا خائضا  
يصبو التديم بها لخمرة كأسه  
فى الماء لف ثيابه فى رأسه

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٦.

(٢) نفسه، ص ٥٨. (٣) نفسه، ص ٥٩.

وقال ابن حجة فى التاج والسبع وجوه وكان من مفترجات مصر قديما :

سبع وجوه لتاج مصر      تقول ما فى الوجود شبهى  
وعندنا ذو الوجوه بهجى      وأنت تاج بفرد وجه<sup>(١)</sup>

وفيه يقول الصحاب فخر الدين بن مكانس ، من موشح :

والتاج يعلو فوق هام الزهر      والسبعة الأوجه ذات البشر  
وكل وجه حولها كقصرى      مثل بروج حل فيها بدر  
وقد أتى فى كل برج سعد<sup>(٢)</sup>

وقال الصحاب فخر الدين بن مكانس فى بثر اللسان بالمطرية من موشح :

انظر إلى أنوار بشر البلسم      فهى سبيل صحتى من سقم  
لكونها فيما يقال تنتهى      إلى المسيح السيد ابن مريم  
يحيى بإذن الله ميت اللحد<sup>(٣)</sup>

وقال :

بثر لها التعظيم والجلالة      بدرا أنارت واستدارت هاله  
أنموذج الفردوس لا محاله      لها على الجنة أى دلاله

تذكر الناس نعيم الخلد<sup>(٤)</sup>

وقد حمل لواء الأدب فى العصر العثمانى أسرة السادة البكرية ، وقد امتازت المدرسة البكرية الأدبية فى أشعارها ونثرها بوصف الحدائق والبساتين والقصور والبرك والنسيم العليل وما يتركه فى النفس من أثر<sup>(٥)</sup> ، وقد حظيت بركة الأزيكية بنصيب وافر فى مطارحاتهم الأدبية لأن معظم إقامتهم كانت بقصورهم عليها .

وقد وصف الرحالة الأديب عبد الغنى النابلسى البيئة العلمية للبكرية بقوله اثناء زيارته

(١) نفسه ، ص ٦١ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٥) محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ١٢٩ .

مصر ونزوله ضيفا عليهم سنة ١١٠٥ هـ : « . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهمام، بركة الأنام، الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى، فتلقانا بصدرة الرحب وجلست عند حضرته حصة من الزمان فى مجلسه المظل على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان، التى فيها نفحة من نفحات الجنان، وتذاكرنا معه فى بعض المسائل العلمية، والمطارحات الأدبية، والقصائد الشعرية، واجتمعنا هناك عنده بقريينا وعزيزنا الفاضل الكامل محمد أمين المحبى<sup>(١)</sup> الشامى، وبصديقنا الفاضل الأديب الشيخ شاهين فتح الله، وقد أنزلنا الشيخ فى دار لصق داره، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره»<sup>(٢)</sup>.

وقد استأثرت بركة الأزبكية بكثير من كتابات الأدباء المصريين أو الزائرين لها فى العصر العثمانى، وقد جمعتهم الحضرة البكرية على شواطئها، ومن قصيدة للمحبى حرص فيها على ذكر البركة بالإضافة لمدحه للشيخ زين العابدين البكرى، قال :

يا حبهذا خضر الخما	ئل فى رياض الأزبكية
وخفوهذا أردية النسيم	سرى ببقعتها النندية
أرض تكتنفها الحدا	ثق والرياض الأريضية
وتقطرت أرجاؤها	بالرايحات المنдлиية
فواجهه بمشدا العبير	وعابقت عنبرية
وترننت أطيارها	سحرا بأصوات شجية
وإذا تأملت القصور	ريها عرفت لها المزية <sup>(٣)</sup>

وللنابلسى فى بركة الأزبكية :

رعى الله من مصر على القرب موردا	به النيل وافى ماؤه يذهب الصدا
له الحظ من كل النفوس تشوقا	إليه وقد مدت عليه العلايدا
يسمونه بالأزبكية بركة	مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها	كوجه عروس لاح فى الحسن مفردا
يباكرها ربح الصبا فيمسها	ويكثر فيها بالعشى ترددا

(١) هو صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

(٢) الحقيقة والمجاز، ص ١٨١ .

(٣) نفسه، ص ١٨٤ .

إذا زال فيها الماء كانت حديقة  
وإذا قل الماء إذ زال بعضه  
ومن حولها تلك القصور تزخرت  
وفيهما شبابيك عليها مظلة

فتلبس ثوباً أخضراً ومورداً  
فروض على شط حكي النهر قد بدا  
وجلّت بها فيها وزادت تودداً  
وعيدانها صيغت لجينا وعسجداً<sup>(١)</sup>

ويتنقل النابلسي بعد ذلك إلى مدح الشيخ زين العابدين البكري، والنابلسي أيضاً في بركة الأزيكية:

وبركة مباركة  
تكاد من إشراقها  
مصر بها في عصرنا  
منبسط الماء بها  
وقانص الأسماك قد  
كم حولها قصر زها  
وماؤها إن جف  
يسرح فيها الطرف لا  
وكم بها من جؤذر  
وكم هنا طالع  
وكيف لا وهى السنى  
يسر بيت مفرد  
بيت الكمثال والهدى  
لم يزل الفخر له  
كوكبه زين العبا  
بحر العلوم كامل  
وكم من غريب ضايغ  
وكم به من هممة

لأزيك الأتابكة  
تنزلها الملائكة  
قد فاخرت بمالكه  
تبدى الصبا سبأيكه  
أوردها شبأيكه  
بمده، رأيكه  
فهى روضة مباركة  
يدرى بها مسالكه  
يحوى العيون الفاتكه  
بدر الليالى الحالكة  
تهدى بليل سالكة  
ما أن ترى مشاركه  
البكري نعم ذلك  
وما عده تاركه  
دالمقتنى مداركه  
فى كل فن شاركه  
ربى به تداركه  
قامت وكانت مباركه<sup>(٢)</sup>

وأقول فى النهاية أن جزءاً كبيراً من كتب الأدب المملوكية والعثمانية لا تزال مخطوطة وتحتاج للنشر.

(١) الحقيقة والمجاز، ص ١٨٦.

(٢) الحقيقة والمجاز، ص ٢٥٦-٢٥٧.